الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

قسم العلوم الانسانية

شعبة: التاريخ

صورة الحرمين الشّريفين (مكة، المدينة المنورة) من خلال نماذج من نصوص الرّحلة الجزائرية في الفترة العثمانية

924ه-1246ه/1518م-1830م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالبة:
الشحمة فاطنة

إشراف الأستاذ. أبوبكر محمد السعيد
المشرف المساعد: أ. جعفري أحمد

الموسم الجامعي 1436 هـ - 1437هـ
2015 م- 2016م

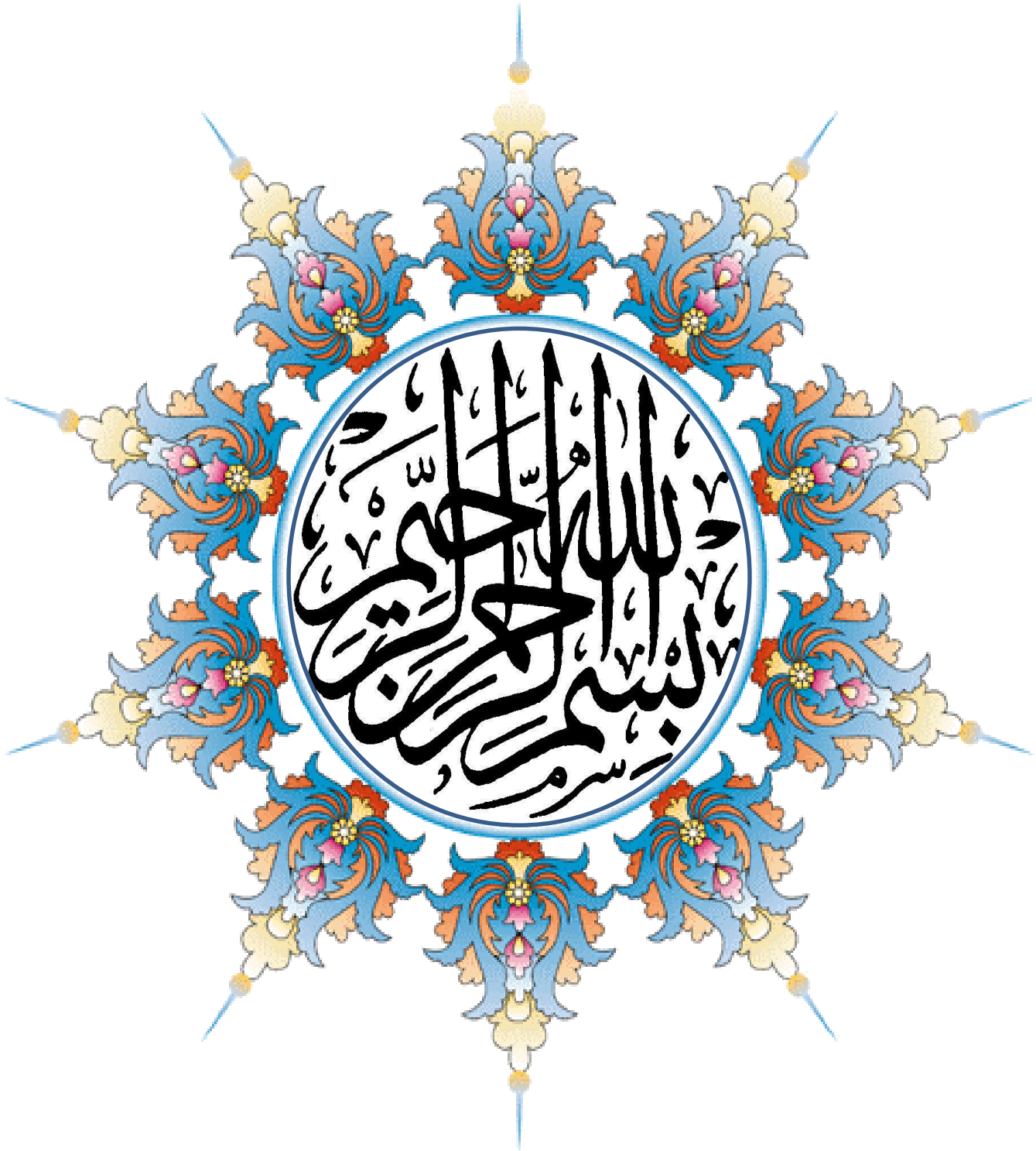
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى التي رأتني بقلبها قبل عينيها، وحضنتني أحشاؤها قبل يديها، إلى من أحببت عمري لأجلها ، واهتز كياني لدمعها ، حملتني ثقلا، ووضعتني كرها ، وأرضعتني حبا ، يا من اختطفك مني القدر، ولم أرو عيني منك بالنظر ، رحمة الله عليك يا ساكنة القبر، إليك يا أمي ، يا مقصد الولهان ، ومورد الضمآن ، ومأمن الهيمان، أقول: هنيئا نجاحك أمي الغالية.

إلى من كان لي أبا وأخا وصديقا ، منبع الحنان الصافي ، ومورد الهوى الكافي ، إليك أبي الشحمة معمر ربح البيع ،ونعم الكسب كسبك. إلى من شجعني وآزرني على أن أمتطي صهوة المجد، وشاركني أفراحي وأحزاني ، وتعب وسهر لأجلي كثيرا ، زوجي

إلى متعتي في الحياة ، أبنائي الأربع ، بشرى أمتع بها الروح ولا أشبع، هشام يطيب به اللقاء والمجمع ،آية الشوق من المحبة ولا أروع ، وملاك روحي كلامها البريء ولا أبلغ.

إلى شموع المستقبل الراقي ، زهور أشواقي ، عند فرحة التلاقي ، إليكم أشقائي

بقدر ما تتزاحم كلمات الفرحة على شفاهنا، لأننا أوشكنا على الحصاد الأخير، وبقدر ما تتسابق مشاعر الألم على قتل الفرحة، فنحن نحترق على فراق أساتذتنا وزملائنا في الدراسة، ونقول لهم جميعا:

بنا وبنتم والمشاعـــــر جمه نهفو للقياكم ونسكب أدمـــــعا
نتذكر الماضي فيهطل دمعنا دمعا سخيا بالمواجع مثقـــــلا
نتذكـــر الحلقات والنفحات والبسمات واللقيا فنجهش بالبكاء
فجنة الفردوس تجمع شملنـــا يا رب أبلغنـــا منانا باللقـــاء

عجزا ألوذ ببضعة أحرف تعبيرا عن جزيل شكري ، وعظيم امتناني لأستاذي أبو بكر محمد السعيد ، ومساعده الأستاذ جعفري أحمد ، اللذان رعيا هذا المنجز ، فكرة ومشروعا، تقويما و تهذيبا، وأبدا سأبقى شاكرة لفضلهما, وحافظة له.

وكم أودّ أن تسعفني الكلمات للتعبير عن شكري وامتناني لأعضاء لجنة المناقشة ، على صبرهم ورحابة صدورهم , وسعة حلمهم، في قراءة هذا العمل وتثمينه.

كما لا يفوتني أن أتقدم بعظيم التقدير والامتنان، إلى الأستاذة آل سيد الشيخ سعاد، على ما قدمته لي من عون، وعلى ما خصتني به من كتب ومراجع ، فجزاها الله عني خير الجزاء.

والشكر موصول إلى الأستاذ دهان سليمان ، وإلى كل أساتذتي الذين تلقيت العلم على يديهم. وإلى كل من سهر على إخراج هذا العمل بهذه الحلة البهية.

الطالبة: الشحمة فاطنة

قائمة المختصرات

– ج:	جزء.
– د. ط :	دون طباعة.
– د. ر.ط:	دون دار طباعة.
– د.ت. ط:	دون تاريخ طباعة.
– د. س. ط:	دون سنة الطبع.
– هـ:	هجري.
– م:	ميلادي.
– تح:	تحقيق.
– تر:	ترجمة.
– ص	صفحة.

مقدمة

حظيت البقاع المقدسة، مكة المكرمة والمدينة المنورة باهتمام المؤرخين والباحثين والرحالة، لِما للمدينتين من مكانة مقدسة في قلوب المسلمين، فمنذ أن فرض الله على الناس حج بيته الحرام لمن استطاع إليه سبيلا، وجعله الركن الخامس من أركان الإسلام، أصبحت مكة قبلة للمسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، يحجون إليها من كل فج عميق، وكانت ولاتزال مهوى لأفئدتهم، ومشدا لرحلاتهم.

وكان الجزائريون وما زالوا من الذين تعلقت قلوبهم بهذه الأرض المقدسة، يرتحلون اليها في قوافل الحجيج، متحملين عناء ومشقة السفر، وكلهم شوق وحنين لرؤية بيت الله الحرام والتمتع بالنظر لمسجد نبيه الكريم، وأداء مناسك الحج، إيمانا واحتسابا، وكان لكل عصر خصوصية ثقافية وحضارية يتفاعل معها الرحالة تأثيرا وتأثرا نتيجة احتكاكهم بأجناس مختلفة، وثقافات متنوعة، وما يشاهدونه من مظاهر اجتماعية واقتصادية وسياسية متميزة .

كان العهد العثماني بالجزائر كغيره من العصور، حافلا برحلات الحجيج للبقاع المقدسة، تقديسا للدين وتعظيما لشعيرة الحج، ومن مميزات الرّحالة الجزائريين في هذا العهد عكس العهود السابقة، تدوينهم لأخبار رحلاتهم، وذكرهم لجزئيات الرحلة وتفاصيلها، ووصف مشاهداتهم في تلك البقاع بكل صدق وعفوية، وواقعية في موضوعات كثيرة، إخلاصا لوجهه تعالى، بعيدا عن الانحراف والتحريف، معتمدين على تسجيل الوقائع والمشاهد والاتصال المباشر، للتعرف على طبائع البشر وأحوال المجتمع، من خلال ما رصدوه من عادات وتقاليد وتقص للجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والعمرانية في الامصار التي مرو بها ومكة والمدينة على وجه الخصوص، فحملت متونهم الرحلية صورت جسدت واقع الحياة في تلك الفترة بمخلف جوانبها الحضارية.

ومن هنا جاء عنوان هذه البحث موسوما بـ: صورة الحرمين الشريفين (مكة المكرمة، المدينة المنورة) من خلال نصوص (المقري، الورثيلاني، المصعبي، المجاجي) في العهد العثماني 924هـ-1246هـ/1518م-1830م.

الإطار المكاني والزماني للدّراسة:

بالنسبة للإطار الزمني فقد حددته بفترة التواجد العثماني بالجزائر، فسنة (924هـ -1518م) يوافق سنة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، والذي يشكل نقطة تحول في تاريخ الجزائر، والتي تزامنت بتسليم شريف مكة مفاتيح الحجاز للعثمانيين لما سمع بانتصاراتهم في المشرق، أما التاريخ الثاني (1246هـ -1830م) فيوافق حدثا قلب أوضاع الجزائر، وأدخلها في مخطط التوسع الإمبريالي الفرنسي، بعد سقوط الدولة العثمانية بالجزائر.

وارتباطا بعامل الزمان يأتي عنصر المكان، الذي يحدد الإطار الجغرافي لموضوع دراستي، الذي يشمل منطقتين لهما مكانة خاصة في العالم الإسلامي، وهما مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وما اختياري لهذا الإطار الزمني والمكاني إلا لكون هذه الفترة وهذه الجغرافيا عرفت ازدهارا في أدب الرحلة بتدوين الرحالين المغاربة بصورة عامة والجزائريين بخاصة لحثيات سفرهم في مختلف الأمصار خاصة السفر لأداء فريضة الحج، والتي هي مرتكز مادتي التوثيقية في هذا البحث.

هـدف الدراسـة:

إن معظم الدراسات التي تناولت تاريخ مكة والمدينة المنورة ركزت على المكانة الدينية لها، وذلك لوجود بيت الله الحرام بها. ومن هذا المنطلق رأيت أنه من الواجب بل من الضروري أن أساهم في تسليط الضوء على جوانب أخرى عدى قدسية المكان، فهدفت إلى تبيان الجوانب الحضارية الأخرى لهذه المنطقة كالجانب الاجتماعي والصحي والاقتصادي وغيره معتمدا على نصوص

الرحالة الجزائريين في العهد العثماني، واستثمارها بشكل أكاديمي علمي أُبين من خلالها الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية وحتى العمرانية لأهل الحجاز في تلك الفترة.

دوافـع اختيـار الموضـــوع:

لاشك أن لكل طالب بواعث ودوافع موضوعية وذاتية ، تثير حواسه للبحث في موضوع معين، فمن الدوافع الموضوعية فتتمثل في محاولة تشكيل نص تاريخي، يرسم ملامح الحياة العامة من مختلف جوانبها في منطقة الحرمين الشريفين، ويذكر جزئيات الحياة في زمن الرحلة، استنادا لنصوص بعض رحلات الجزائريين في العهد العثماني.

ومحاولة تبيان أهمية النص الرحّلي الجزائري الذي لم يلقى الاهتمام الذي يستحقه، مثل لقيته الرحلة المغربية، ومعاناتها لسنوات من التهميش والتجاهل وبقيت المعلومات التي احتوتها، مخفية بين طيات الكتب والمخطوطات، تشكو إهمال الإنسان وعوامل النسيان، فرأيت أن أنفض غبار الزمن عن بعض هذه الرحلات، وتسليط الأضواء عليها.

اما عن الدوافع الذاتية التي حفزتني في خوض غمار هذا الموضوع، أني وجدت في نفسي ميلا للبحث فيه، وذلك خاصة بعد اطلاعي على بعض كتب الرحلات كرحلة الورتيلاني والمقري التي وجدت فيها معلومات كثيرة، تحتاج البحث والدراسة، بالإضافة إلى الرغبة الكامنة في معرفة صورة الحرمين الشريفين في عيون الرحالة الجزائريين، وما الذي أثر فيهم وشدّ انتباههم فدونوه في رحلاتهم، زيادة على الشوق الذي ينتابني لزيارة بيت الله الحرام، ومجاورة الروضة الشريفة، و اكتحال العين برؤية قبر النبي (صلى الله عليه وسلم)، فكان تتبع ركب الحجيج وهم على مشارف الحجاز، ومرورهم بالدول والمدن والمساجد والآبار، ودخولهم للحرمين، ووقوفهم على المزارات الشريفة، إشباعا لهذه الرغبة الجامحة التي تراود كل مسلم.

– إشكالية الدّراسة:

ولبلوغ الغاية المنشودة، والهدف المقصود فان إشكاليتي الرئيسية التي انطلقت منها هي:

- كيف صوّرت نصوص الرحلة الجزائرية ملامح الحياة العامة في الحرمين الشريفين (مكة المكرمة، المدينة المنورة) خلال العهد العثماني؟

تندرج تحت هذه الإشكالية مجموعة تساؤلات فرعية:

من هم أهم الرحالة الجزائريين الذين تطرقوا للموضوع في هذه الفترة.؟

- ماهي الجوانب التي اهتم بها الرحالة الجزائريون في رحلتهم للبقاع المقدسة؟

- كيف تناول هؤلاء الرحالة منطقة الحرمين الشريفين ضمن مدونات رحلاتهم؟

– الدّراسات السّابقة:

فيما يخص الدراسات السابقة لهذا الموضوع فقد تناولته الأستاذة آل سيد الشيخ سعاد في تحقيقها ودراستها لرحلة عبد الرحمان المجاجي، فمن خلال الدراسة، استوقفتني الغاية والمقصد الذي يدفع هؤلاء الرحالة لمغادرة الأوطان، وفراق الأهل والخلان، شوقا لرؤية الحرمين الشريفين، ومنها جاءتني الفكرة في البحث والتوسع في نقل وتصوير المشاهد والمشاعر التي تتشكل بلقاء العناصر الثلاث: المكان (الحرمين الشريفين) – الزمان (العهد العثماني) – شاهد العيان (الرحالة الجزائري) باقتراح من الأستاذة الفاضلة، فجزاها الله عني كل خير.

كذلك استفدت من مذكرة الماستر للأستاذ دهان سليمان، الموسومة بـ: " ركب الحج الجزائري في العهد العثماني من خلال نصوص الرحلة 1830/1518"، التي كشفت خبايا وتفاصيل ركب الحج الجزائري في مختلف جزئياته، وركزت على مسار رحلته والمناطق التي يمر بها، إلا أن منطقة الحرمين لم تأخذ حظها من الدراسة والتحليل.

بالإضافة إلى بعض النتف المتفرقة في كتاب الدكتور أحمد هاشم البدرشيني، الذي تحدث عن مكة والمدينة في كتابات الرحالة المسلمين و ما كتبه أبو القاسم سعد الله (رحمه الله) في كتابه تاريخ

الجزائر الثقافي –الجزء الأول–، رغم أن كتاباته في هذه الجزئية اتسمت بالشمولية، ومن المراجع المهمة كتاب مولاي بالحميسي (الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني

– حطة الدراسة:

لمعالجة هذا الموضوع والإلمام بمختلف جوانبه أفردت خطة من ثلاثة فصول، استهلت بمقدمة منهجية بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياري له، والإشكالية التي يعالجها والمنهج المعتمد في دراسته والصعوبات التي اعترضتني في تحضيره، والدراسات السابقة التي تناولت موضوعه، وذيلتها بخاتمة تضمنت حوصلة للبحث والنتائج التي توصلت لها استقراءا وتحليلا، وفق المنهج المتبع والخطة المقررة، وأردفتها بالملاحق وفهارس المصادر والمراجع التي كانت سندا لي.

فالفصل الأول تناولت فيه مفهوم الرحلات في الكتابات التاريخية الجزائرية، عرفت فيه الرحلة، وتتبعت فيه مختلف مراحل تطور أدب الرحلات و أنواع الرحلات عند المسلمين وأهدافها، كما استعرضت بعض الرّحلات الجزائرية إلى الحجاز في العهد العثماني، مبرزة دوافعها وعواملها وأقسامها.

وأوقفت **الفصل الثاني** للحديث عن نماذج بعض رحلات الجزائريين إلى الحرمين الشريفين خلال الفترة العثمانية، فاخترت عينة من الرّحلات المكتوبة لشخصيات مشهورة، وهم الورثيلاني والمقري، والمجاجي والمصعبي، وذلك بالتعريف بهم، وإعطاء نبذة عن حياتهم، و الإشارة إلى سبب الرحلة، وقيمتها العلمية .

وسخرت **الفصل الثالث** للحديث عن ملامح الحياة العامة للحرمين الشريفين، من خلال نماذج نصوص بعض رحلات الجزائريين في العهد العثماني، من جانبها الديني من زهد وتصوف وجانبها العلمي الثقافي، باحتكاك العلماء وتواصل المشايخ في المساجد، وحلقات الدّروس، ومن جانبها الاجتماعي من روابط اجتماعية تنسجها حركة الحج، وجانبها السياسي من خلال إدارة

حكامها، وسياسة ملوكها وأمرائها، وجانبها الاقتصادي من مبادلات تجارية تنشط في مواسم الحج وأخيرا جانبها العمراني والنمط المعماري لمساجدها ودورها، الذي ساد زمن الرحلة.

- **المنهج المعتمد في الدّراسة:**

للإجابة عن الاشكالية والتساؤلات المطروحة، اعتمدتمنهجين رئيسيين تفاوتت درجة استخدم كل منهما، على حسب مقتضيات البحث، فكان المنهج الأول هو المنهج التاريخي الوصفي الذي استخدمته في عرض المادة الخبرية التاريخية في وصف المشاهد والوقائع التاريخية بكل دقة، وحتى يتسنى تحليلها، استعنت بالمنهج التحليلي في تحليل كل المعطيات العلمية، من نصوص وأقوال وآراء وردت في الرحلات.

- **صعوبات الدّراسة:**

إنّه لمن الطبيعي أن يلقى الباحث صعوبات أثناء بحثه، ولكنها لن تكون حجر عثرة في طريق المجد والمتذوق لحلاوة البحث، ومن الصعوبات التي واجهتني أثناء إنجازي لهذه المذكرة أذكر منها:

- قلة المصادر والمراجع فيما يتعلق بالعهد العثماني، وندرة البحوث و الدراسات التي تناولت الرحلات الجزائرية عموما في هذا العهد على وجه الخصوص.

- تركيز الرّحلات على دروب ومسالك وركب الحجيج والمدن، التي يمرون عليها وإغفالهم للبقاع المقدسة التي تعتبر المقصد والغاية، فلا تجد في الرحلة إلا بعض النتف المتفرقة هنا وهناك، ممّا يدفعك لجمعها وتصنيفها وتبويبها.

- صعوبة الإلمام بكل جوانب الموضوع في فترة زمنية قصيرة، أعلم أنّي أبحرت في بحر متلاطم الأمواج، هو موضوع الرحلات، استهوى الرحالة، وأخاف الدارسين، فهو طريق ليس ممهدا كل التمهيد، لا من ناحية توفر المادة العلمية، ولا من ناحية الحصول عليها، ومهما بلغ جهدي فهو قاصر على سدّ كل الثغرات، ولعل أقلاما أبرع، وعقولا أذكى، تتولى دراسة هذه الرحلات مستقبلا، وتستخرج ما فيها من جواهر وكنوز.

لكـن مـن رفـع التحـدي لابـد لـه مـن إكمـال طريقـه في العمـل، فقـد تمكنـت مـن تـذليل هـذه الصعوبات من خلال اتباع النصائح التي لم يبخل بها علي" الأستاذان المشرفان، ومن خلال الاطلاع على المراجع التي تتحدث عن كل مصدر صعب، فكانوا لي عونا على قراءتها والغوص في ثناياها.

- **المصادر والمراجع الرئيسية المعتمدة في الدّراسة:**

لا يمكن أن تستقيم أي دراسة إلا بالاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع المتخصصة، لذا قمت بجمع عدد منها، تنوعت مواضيعها، واختلفت مناهج تأليفها، ومن بين المصادر التي خدمت الموضوع بصورة مباشرة نذكر الرحلات الآتية:

- (**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**) المعروفة بالرحلة الورتلانية، للشيخ الحسين الورثيلاني المتوفي سنة(1193هـ/1779م)، والتي تعد أهم الرحلات التي اعتمدت عليها لكونها تضمنت كما هائلا من المعلومات الدقيقة في مختلف المجالات المتعلقة بموضوع الدراسة، وقد أفادتني في جل الفصول تقريبا إلا أن الارتكاز عليها كان في الفصل الثالث، لتوفرها على حيثيات وتفاصيل مختلف الجوانب الحضارية لمكة والمدينة

- رحلة أحمد المقري، **المسماة رحلة المغرب والمشرق**، وإن كانت مقدمتها وخاتمتها مفقودة ولم أتحصل عليها إلا بعد جهد جهيد، إلا أن ما جاء فيها من إشارات وإجازات ومراسلات ومكاتبات للمقري مع أمراء وعلماء، وقضاة الحجاز، فيه فائدة كبيرة تساهم في رسم الصورة الواضحة المعالم خاصة في جانبها الثقافي العلمي وحتى الديني لتلك المنطقة، زمن الرحلة.

- رحلة عبد الرحمان المجـــــاجي، المعنونة **برحلة المجاجي**، منظومة بالشعر الفصيح، وهي رحلة عودته من الحجاز، واصفا مراحل الرحلة، معددا المدن والقرى والأودية التي مرّ بها ، أفادتني كثيرا في كل الفصول لما تضمنته من معلومات مهمة خاصة ما تعلق بوصفه للأراضي الحجازية، رغم أنها مقتضبة، ولم تعطي إلا أهم الاشارات، ولم تقدم صورة جلية عن تاريخ المغرب والمشرق بشكل كاف.

– رحلة إبراهيم بن بحمان المصعبي المعروفة **بـديوان المصعبي**، وهي نظم شعري لرحلة الشيخ المصعبي ضمن الاطار الزمني للدراسة، استفدت منها في العديد من الجزئيات التي دونها في رحلته، ونظرا لطابعها الشعري فصعب التعامل معها شأنها شأن رحلة المجاجي، واختصارها للاخبار.

– **الرحلة العياشية** لأبي سالم العياشي(ت1090هـ/1679م) بجزأيها جمع فيها المؤلف خلاصة مشاهداته وملاحظاته خلال رحلاته الثلاث إلى الحجاز، واستفدت منها بمقارنة نصوصها بنصوص الرحلة الجزائرية، خاصة أنها تنتمي للفترة نفسها، وقدمت تفصيلا وتوضيحا فيما لم يفصل فيه غيره.

أما عن **أهم المراجع المعتمدة** فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

– كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله، " **تاريخ الجزائر الثقافي**"، في جزئه الثاني، الذي قدّم لي نبذة عن أدب الرحلة في الجزائر خلال العهد العثماني، وأفادني فيما تعلق بالحياة الفكرية والأدبية والثقافية في العهد المذكور، كالعلوم والفنون والتصوف والرحلات....

– كتاب سميرة نساعد: " صورة المشرق العربي من خلال رحلات الجزائريين في العهد العثماني"، وكتاب" الرحلات الجزائرية إلى المشرق – دراسة في النشأة والتطور والبنية–" والذي أفادني في معرفة طبيعة بناء الرحلة، ووصفها للمدن والطرق والشخصيات. لكنه لم يولي اهتماما بصور الحجاز في أعين الرحالة بل تمحور على أدب الرحلة، وما يرتبط به

في الأخير لقد حاولت جاهدة، أن أتبع خطوات البحث العلمي الدقيق في هذه الدراسة، لكي تليق بمستوى طالبة ماستر، وتكون عند حسن ظن أساتذتها، وحسبي أنّي بذلت جهدي وطاقتي، فإن وفقت فمن الله بمساعدة مشرفي البحث الأستاذ الفاضل: أبو بكر السعيد ومساعده الأستاذ المحترم: جعفري أحمد، والله من وراء القصد.

الطالبـة: الشحمـة فاطنة

الثلاثاء 17ماي 2016

الفصل الأول

الرحلة من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية

الفصل الأول: الرحلة من خلال الكتابات التاريخية الجزائرية

ساهم الرحالة الجزائريين بمساهمات واضحة في كتابة الرحلات، وبالأخص في القرن 18م، ورغم هذه الإسهامات فإنّ تدوينهم لهذه الرحلات يعد قليلا إذا ما قورن بالمغاربة مثلا، وهذا لا يعني غياب الرحالة الجزائريين، وإنما يعود إلى كون أغلب الرحالة لم يسجلوا مشاهداتهم ورحلاتهم بسبب غياب حس التدوين لدى بعضهم، وبقاء الكثير منهم في البقاع المقدسة.

المبحث الأول: مفهوم الرحلة وتطورها

خلق الإنسان راحلا ومرتحلا، ومتنقلا من مكان لآخر، فكانت الرحلة راسخة في طبيعته بداية من رحلة آدم (عليه السلام)من الجنة إلى الأرض، ثم رحلة نوح(عليه السلام) في السفينة، ورحلة يونس (عليه السلام) في بطن الحوت، ورحلة سيدنا ابراهيم (عليه السلام) مع زوجته سارة إلى مصر وبعدها رحلته مع هاجر وولدهما إسماعيل، ورحلة سيدنا محمد (ص) من مكة إلى المدينة، وقد أرختها الكتب السماوية .

- **تعريف الرحلات:**
- **الرحلة لغة واصطلاحا:**
- **الرحلة لغة:**

ارتبط مفهوم الرحلة عند العرب بالدواب التي يرحلون عليها، فأخذوا كلمة – رحلة– من هذا المعنى، وقد نالت مادة– رحل– اهتماما كبيرا في المعاجم اللغوية، وذلك دليل على أهميتها، ولكونها مادة متداولة بشكل واسع ونابعة من واقع البيئة العربية، حيث جاء في لسان العرب[1]: أنَّ الرحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورجلٌ

(1) ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم"، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين، دار المعارف، مصر، 1979م، ج3 ص 1609 – 1611 مادة (رحل)

رحول، وقوم رحل، أي يرتحلون كثيراً، ورجلُ رَحَّال: أي عالم بالرحيل ومجيد له، والرحالة هو كثير الارتحال، والراحلة من حتى إذا قيل : ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً، ورحل عن المكان يرحل

وهو راحل من قوم رحَّل، والترحُّل والارتحال، يعني الانتقال.

الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة:

– ففي القرآن: ورد لفظ رحلة في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة قريش في قوله جلّ وعلا: "لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (1)

– الرحلة في السنة النبوية:

أما إذا عرجنا إلى السنة النبوية الشريفة نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشجع أصحابه على الرحلة ويحثهم عليها بغية طلب العلم، ونشر الإسلام، وكذا التأمل في هذا الكون والتدبر في آيات الله تعالى وكشف كنوزه، ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي يحث فيها على الرحلة لطلب العلم، نذكر: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة(2)

إنّ الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد ارتبطت بدوافع نفعية كثيرة، مثل التجارة والبحث في سبل آمنة للعيش أو مشاهدة آيات الله في الأرض، والتدبر فيها ثم تبليغها للآخرين ممن حرموا نعمة مشاهدتها، وكذلك القيام بالحج والعمرة وطلب العلم من منابعه وأصوله في سبيل الله ونصرة دينه ولعل عناية ديننا الحنيف بالرحلة والحث عليها راجع إلى فوائدها ومنافعها الجنة.

(1) سورة قريش

(2)محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، **صحيح مسلم بشرح النووي**، تح : محمد سيد عبد رب الرسول، ج18 –17، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة،2006، ص21.

- **الرحلة اصطلاحا:**

هي انتقال مجموعة متجانسة ذات علاقة معينة من مكانهم المعتاد اليومي، إلى مكان آخر غير معتاد عرَّف الإمام أبي حامد الغزالي[1] السفر والرحلة بأنهما : "حركة ومخالطة"، أو : "مخالطة مع زيادة تعب ومشقة"، وأوضح أن الأغراض الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأنَّ الإنسان لا يسافر إلاَّ في غرض، والغرض هو المحرك[2].

عرَّفها بطرس البستاني[3] بأنها : "انتقال واحد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد وأغراضٍ مختلفة، وأسباب متعددة" كما عرفها الدكتور صلاح الدين الشامي[4] ، بأنها "إنجاز أو فعل فرديُ أو جماعيُ لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر[5]

- **تعريف أدب الرحلات:**

أدب الرحلات هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه

(1) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد **الغزالي** الطوسي النيسابوري الفقيه الصوفي الشافعي الأشعري الملقب بحجة الإسلام وزين الدين (450 هـ - 505 هـ / 1058م - 1111م)، مجدد القرن الخامس الهجري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين السنة في التاريخ الإسلامي.

(2) الإمام الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ج2، ص (245 – 260).

(3) بطرس البستاني؛ دائرة المعارف الإسلامية، 264/10.

(4) **صلاح الدين الشامي** من أساتذة الجغرافية المشهورين في العالم العربي المعاصر وهو مصري عمل أستاذا ورئيسا لقسم الجغرافية بجامعة القاهرة ، انظر: أعلام الجغرافيين العرب لعبد الرحمن حميدة، دار الفكر، ص 56

(5) ناصر عبدالرازق الموافي، **الرحلة في الأدب العربي**، دار النشر للجامعات المصرية، مطابع الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م ، ص 24-25.

من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان[1]، و تُعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصويرالمباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية.

- **نشأة وتطور الرحلة:**

ارتبط تاريخ الرحلة مع تاريخ الانسان، فكان انتقاله من مكان لآخر، بحثا عن الرزق والقوت، كما أن حركة القبائل والأجناس والهجرات، التي شهدتها العصور الغابرة تعد رحلة، حيث تنقل الانسان لأماكن كثيرة وبعيدة، لأسباب وأغراض مختلفة.

ارتبطت الجغرافيا بالرحلة التجارية للإنسان، كان الرحالة يسجل ويقيد في طريقه معلومات عن طبيعة الطرق، ونوعية الشعوب التي يتعامل معها، وظل هدفه الوحيد من هذه الرحلة الكسب والارتزاق[2].

- **في العصور القديمة**

تعددت أغراض السفر لدى الإنسان القديم، أهمها رحلة البحث عن الصيد والرزق، وكان معظمها بهدف للحصول على الطعام والمأوى، والبحث عن مناخ أفضل، وإلى ذلك الحين كان أدب الرحلات شفهي غير مكتوب، يعتمد على الأساطير القديمة، ومن ثم أصبحت الرحلات مكتوبة، وكانت أقدم الرحلات هي رحلة تجارية للمصريين القدماء في عام 1493ق م، كان للرومان رحلات عديدة نحو

(1) عبد العزيز المقالح؛ مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب، رؤية يمنية في أدب الرحلات، دار الخليج، اليمن،ط1، 2012، ص11.

(2) حمادي المسعودي؛ **الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة**، مجلة أطروحات، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، فيفري2001 القيروان، تونس، ص30-31.

المعابد الشهيرة، وعجائب العالم القديم، ومنها بدأت الرحلات الدينية، ومن هذه المعابد : معبد باليرا[1]، ومعبد سبيطلة[2].

حاول الإغريق التعرف شرقا على مجال آسيا والبحار المجاورة، وغربا استكشاف الشواطئ الأوروبية والإفريقية الغربية، وبرزت الرحلات الطوافية، التي كانت تقدم تفاصيل المسافة بين ميناء وميناء وبين رأس وآخر مثل الخرائط الملاحية[3]، غير أنّ هذه الوثائق لم تصلنا إلا عن طريق اقتباسات نص من مؤلفات "هيرودوت"[4] و"سترابون" وغيرهم.

- **في العصور الوسطى**

شجعت الكنائس المسيحية السفر لنشر الدين المسيحي، فكانت هناك رحلات جماعية إلى أرض المقدس، وكان للمسلمين في العصر الوسيط دور كبير في تطور أدب الرحلة، وارتبطت الرحلة عندهم بعلم تقويم البلدان أو علم الجغرافيا، ذلك أنّ الرحّالة عنوا عناية خاصة بوصف المدن والبلدان وذكر طرقها وشعابها وجوها ومناخها، ونباتاتها ومحاصيلها، لحاجتهم إلى معرفة الطرق إلى مكة وذلك للقيام بفريضة الحج، فضلا عن عنايتهم بالتجارة.

وقد برز عديد الرحالة المسلمون من خلال ما كتبوه، فنجد:

- في القرن التاسع الميلادي: هشام الكلبي، سليمان التاجر.

---

(1) **باليرا** : يقع 130 ميل شمال دمشق بسوريا، وتقع على طرق القوافل التي تربط بلاد فارس مع موانئ البحر المتوسط وهي موقع أثري ويهتم السياح بزيارته، انظر معجم البلدان(42/3).

(2) **سبيطلة**: هي مدينة رومانية قديمة وتم الحفاظ عليها بشكل جيد إلى حد ما وتقع في منتصف غرب تونس والمدينة تحتوي على ثلاثة معابد رومانية قديمة، انظر معجم البلدان(68/3).

(3) رينيه كلوزييه؛ تطورالفكر الجغرافي، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر للطبع، د ط دمشق، سوريا، 1985، ص21.

(4) هيرودوت : هو مؤرخ يونانى عاش فى الفترة بين (484 – 425) ق. م. ولد بمدينة "هاليكارناسوس" المعروفة حاليا باسم "كاريا" فى تركيا. وعاش خلال القرن الخامس قبل الميلاد حسب معظم المصادر التاريخية. انظر: تاريخ هيرودوت، تر: عبد الاله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي،2001،ص17.

- القرن العاشر الميلادي: ابن فضلان، المسعودي، ابن حوقل .

- القرن الحادي عشر الميلادي: رحلة البيروني.

- القرن الثاني عشر الميلادي: رحلة الادريسي، وابن جبير.

- القرن الثالث عشر: ياقوت الحموي

ساهم المسلمون من خلال رحلاتهم، بنشر الاسلام في البلاد التي ارتحلوا إليها، ونقل علومهم وعاداتهم وتجاربهم إليها.

- **في العصر الحديث:**

توسعت حركة الاستطلاع إلى المواقع التاريخية، وشجع الملوك العلماء للسفر، ودراسة العلوم عند الشعوب الأخرى، فكانت الرحلات العلمية والجغرافية، وبرز في هذا العصر فاسكو دي غاما[1]، وكريستوف كولمبس[2]، وماجلان[3]، الذين خلفوا وراءهم رحلات تروي مغامراتهم.

ازدهر وتطور أدب الرحلة مشرقا ومغربا، وتعددت أغراضه في الفترة الحديثة، فازداد تدوين الرحلات الحجازية والمقدسية، كما انتشرت الرحلات السياسية "السفارية" بالإضافة إلى الرحلات الجغرافية ، وساهمت الثورة الصناعية في تطوير وسائل المواصلات، مما أدى إلى سهولة السفر والتنقل واختصار

(1) **فاسكو دي غاما:** ولد في 1469 م في البرتغال وتوفي في 24 ديسمبر 1524 م في كاليكوت بالهند) يعدّ من أنجح مستكشفي البرتغال في عصر الاستكشاف الأوروبي، وهو أول من سافر من أوروبا إلى الهند بحرًا،انظر: السعدون، خالد (2012). مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي منذ أقدم حضاراته حتى عام 1971، جداول للنشر والتوزيع، بيروت.

(2) **كريستوف كولمبس**؛(31 أكتوبر 1451 – 20 مايو 1506) رحالة إيطالي إسباني مشهور، ينسب إليه اكتشاف العالم الجديد (أمريكا). ولد في مدينة جنوة في إيطاليا، عبر المحيط الأطلسي ووصل الجزرالكاريبية في 12 أكتوبر 1492م لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام .1498 م، معجم الأعلام(164/6).

(3) **ماجلان:** رحالة ومستكشف برتغالي ولد في سبروزا في شمال البرتغال سنة1480 م، ثم نال بعد ذلك الهوية الإسبانية نتيجة لخدمته للملك الإسباني كارلوس الخامس في الإبحار غربا بحثا عن طريق إلى جزر التوابل، انظر: معجم الأعلام(361/4).

الوقت، ونشطت الرحلات البحرية وتدوينها عند العثمانيين، الذين قادوا العالم الاسلامي، ونذكر من ذلك مصنف "بيري ريس[1]"الموسوم ب"كتاب البحرية[2]"[.]

أهم الرحلات في العصر الحديث: (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز) لرفاعة الطهطاوي، و(السفر إلى المؤتمر) لأحمد زكي باشا، و(الواسطة في أخبار مالطة) لفارس الشدياق، (رحلة محمد شريف إلى اوروبا) لمحمد شريف، و(مذكرات سائح في الشرق العربي) لأبي الحسن على الندوي.

المبحث الثاني: أنواع الرحلات عند المسلمين وأهدافها

تنوعت الرحلة عند المسلمين إلى أنواع أساسية، فالرحلة التي يكون هدف صاحبها لقاء العلماء والدراسة على يديهم هي الرحلة العلمية، والرحلة التي يكون هدف صاحبها تأدية عمل سياسي هي الرحلة السفارية أو السياسية، والرحلة التي يكون هدفها أداء فريضة الحج أو العمرة فهي رحلة حجازية أو حجية، والتي هدفها البيع والشراء والتجارة فهي التجارية.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي :" السفر قد يكون لغرض دنيوي كالمال والجاه، أو ديني إما علم وإما عمل، والعلم إما علم في العلوم الدينية، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وإما علم بآيات الأرض وعجائبها، والعمل إما عبادة وإما زيارة، والعبادة هي الحج والعمرة والجهاد، والزيارة لمكة والمدينة المنورة وبيت المقدس"[(3)].

(1) **بيري ريس**" هو جغرافي، ورحالة، ومستكشف، ومحارب، وأديب إسلامي، عاش بين القرنَين الخامس عشر، والسادس عشر الميلاديين، ويعتبر أحد أهم القادة العسكريين في تاريخ الدولة العثمانية، على جهل الكثيرين به، اسمه الكامل احمد محي الدين بيري، أو "بيري الريس"، وهو اللقب العربي الذي كان يطلقه العثمانيون على القائد البحري، ويعني رئيس البحرية، انظر: موقع ترك برس، المستكشف التركي بيري ريس، عالم البحر والحرب، 22أكتوبر2015،على الساعة 16: 25د.

(2) بيري ريس؛ **كتاب البحرية**، تر : محمد حرب، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1 دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012، ص127.

(3) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ، ج6، ص1081 .

1- الرحلات العلمية:

هي من أهم الرحلات في الإسلام وأعظمها أثرا، لأن أصحابها قاموا طلبا للعلم، وخدمة له، وجمعا للمعلومات من منابعها الأصلية، فكانوا يرحلون من بلد لآخر، متحملين في سبيل ذلك المصاعب والمشاق.

يقول ابن خلدون: " الرحلة لابد منها في طلب العلم, لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[1]، والرحلة في طلب العلم تختلف باختلاف مقاصد أصحابها، فمنهم من يرتحل لجمع الحديث النبوي الشريف، حيث كان لرحلات الصحابة والتابعين أثر كبير في المحافظة على السنة وجمعها[2].

من أعظم من رحل في طلب الحديث الإمام البخاري، فقد رحل في طلب العلم إلى مختلف الأمصار وكتب بخراسان، ومدن العراق والشام والحجاز ومصر، ومن الرحلات العلمية أيضا رحلات علماء اللغة إلى البادية، حيث المنبع الصافي للغة والأدب، فقد سأل الكسائي الخليل بن أحمد، من أين أخذت علمك هذا؟ قال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة[3].

ومن أهم الرحلات العلمية، رحلات الجغرافيين العرب، فبعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، لم يكن بد للمسلمين أن يدخلوا البلاد المفتوحة، لمعرفة طرقها ومسالكها وهذا أدى إلى ظهور علم تقويم البلدان، كما اهتم المسلمون بعلم الجغرافيا، المبني على أسس المعاينة والمشاهدة والدراسة التطبيقية. يمكن أن نبين الفرق الموجود بين مصطلح (أدب الرحلة) ومصطلح الأدب الجغرافي، بغية معرفة الروابط والصلات المشتركة بينهم.

---

(1) ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، دار الهدى،أحمد الزعبي، الجزائر، 2009ص 145.

(2) الخطيب محمد عجاج، أحوال الحديث علومه ومصطلحه، بدون تاريخ، ص134.

(3) الخليل بن أحمد الفراهيدي، هو صاحب علم العروض، وأستاذ سيبويه، راجع جلال الدين السيوطي (ت911هـ) بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة، القاهرة،2001، ص: 196

- **الجغرافيا الوصفية :**

وتعرف كذلك ب "علم المسالك والممالك" وهي تصنف ضمن العلوم الدقيقة. والجغرافيا الوصفية « تقف في الأغلب على النقيض من أدب الرحلات، ذلك أنها تهدف إلى الوصف الجغرافي العلمي أساسا، مستخدمة منهج العلم وأسلوبه، دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية... كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلا مباشرا لا تراعى فيه النواحي الجمالية أو الذاتية»[1]

فالجغرافيا الوصفية إذن تسعى إلى تقديم المعلومات الجغرافية تقديما علميا، وبطريقة موضوعية، تختفي فيها الجوانب الجمالية (الأدبية)، كما تختفي فيه العناصر الذاتية « ويرتبط بها [2] ارتباطا وثيقا قصص الرحلات». وقد تميزت الكتابة الجغرافية عندهم بسمات معينة: - تركيزها على العالم الإسلامي، ويبدو ذلك جليا في كتابات المقدسي وابن حوقل والاصطخري[3]

- التخصص في قطر واحد كالهمذاني[4]والبكري[5]

- ظهور المعاجم الجغرافية مثل معجم البلدان لياقوت الحموي[6].

---

(1) ناصر عبد الرزاق الموافي، المرجع السابق، ص 36.

(2) كراتشوفسكي، المرجع السابق، ص 20.

(3) **الاصطخري**: أبو القاسم إبراهيم محمد الكرخي هو عالم مسلم من رواد علماء البلدان أو الجغرافيين . نشأ في أصطخر ونسب إليها، وألف كتاب صور الأقاليم. وذكر اسمه في (كشف الظنون) بـ أبو زيد محمد بن سهل البلخي، انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ص168.

(4) **الهمذاني**: أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحي بن سعيد، (358 هـ/969 م - 395 هـ/1007 م) كاتب وأديب من أسرة عربية ذات مكانة علمية مرموقة استوطنت همذان، انظر ترجمته في أنباء الرواة 359/1، ومعجم الأدباء 200/9.

(5) **البكري**: هو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي، جغرافي وموسوعي واديب ونباتي أندلسي . ولد في ولبة قرب اشبيلية حوالي عام 1030م وتوفي في قرطبة عام 1094م اشتهر في القرن الحادي عشر الميلادي، وهو أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس، انظر: تصحيح كتاب الأعلام للزركلي، ص67.

(6) **ياقوت الحموي**: 574 - 626 هـ) أديب ومؤلف موسوعات وخطّاط من أصل رومي اشتغل بالعلم وأكثر من دراسة الأدب، وقد سمى نفسه (عبد الرحمن). وأهم مؤلفات ياقوت الحموي كتاب (معجم البلدان)، انظر: البداية والنهاية - ابن كثير - 116/13.

ومن أشهر الرحالة الجغرافيين المسعودي[1] و ابن حوقل, والمقدسي[2]، وعلى هذا يمكن القول إنّ مؤلفات غالبية الجغرافيين المسلمين الأوائل إنما هي نتاج الرحلات.

– الرحلات السياسية:

دفعت الظروف السياسية في الدول الإسلامية والإحساس بالمسؤولية إلى إرسال سفارات إلى جيرانهم، وكان من أهم السفارات تلك التي بعث بها الخليفة المقتدر بالله العباسي(295هـ-320هـ) عام309هـ/921م إلى ملك البلغار ليفقهه في الدين ويعرفه بالشرائع الإسلامية، وكان ابن فضلان أحد أعضاء وفدها.

وتندرج ضمن الرحلات السياسية، تلك التي أرسلها الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى كل من النجاشي في الحبشة، وإلى قيصر عظيم الروم، وكسرى عظيم الفرس، والمقوقس حاكم مصر.

من الرحلات السياسية أيضا رحلة (عبد الله بن محمد التيجاني[3]) الذي خرج سنة 706هـ – 1306م من تونس في صحبة أحد أمراء الدولة الحفصية، الأمير أبو يحي بن اللحيان[4]في رحلة تفقد فيها أنحاء تونس.

(1) **المسعودي**: ~283 هـ - 346 هـ / ~896 - 957 م) مؤرخ، جغرافي ورائد نظرية الانحراف الوراثي. من أشهر العلماء العرب، والمعروف بهيرودوت العرب، انظر: الفهرست لابن النديم، ص (171)، سير أعلام النبلاء.

(2) **أبو عبد الله محمد المَقْدِسِيّ**، هو رحّالة مسلم ولد في القدس سنة 336هـ 947م، ونشأ بها احترف التجارة فكثرت أسفاره حتى صار رحَّالة جغرافيًا، وصنف كتابَ اسماه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" توفي في سنة 380هـ/990م، انظر: المسالك والممالك، للبكري 186/1.

(3) أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبو القاسم التجاني ولد بحضرة تونس ما بين عامي 670-675 هـ (1272-1272 م)، انظر: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقيا التونسية، ج3، جمع واشراف : محمد العروسي المطوي.

(4) انظر الكتاب الذي أرسله الأمير حين مقامه بطرابلس إلى والد التجاني في تونس، نقل الينا رحالنا فحواه فقال : " وكان الأمير -أعزه الله- وجه لوالدي كتابا بخطه يعرفه فيه بحالتي معه، ويصفني فيه بما يليق بذاته الشريفة ومرتبته الرفيعة المنيفة...".

- **الرحلات الحجازية أو الحجية:**

مهما تنوعت الرّحلات واختلفت؛ فإنَّ أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرّحلة التي تسبق مشاعرُه فيها جوارحه، وترنو إليها روحه سابقةً جسده، ويهيم بها فؤاده قبل الشُّروع فيها، ولا تجتمع هذه الصِّفات إلاّ لقاصدي البيت العتيق للحجّ والعمرة؛ ثمَّ انتهاز فرصة القرب لزيارة المدينة النَّبوية والصَّلاة في مسجدها، و يا لها من رحلة تستعذبها الأرواح، وتستروّح النُّفوس عبيرها، ويتجلى الباعث الروحي في الرحلات الحجازية من خلال أشعار الشوق والحنين إلى زيارة بيت رب العالمين والتمتع برؤية روضة خاتم المرسلين[1]، قال النبي (ص): "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى"[2]

تأتي أهمية كتب رحلات الحج وزيارة الحرمين من عظم فائدتها العلمية وقيمتها لدى الباحثين فضلاً عن ارتباطها بالأماكن المقدَّسة، ومن جوانب أهميتها أنَّها بيان دقيق لحال المسلمين الدِّينية ومدى قربهم من الله وإتِّباعهم السنَّة خصوصاً ما يتعلق بأهل الحرم، إضافةً إلى وصف الأوضاع السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، ونقل عادات السُّكان وطبيعتهم في الافراح والأحزان، وتسجيل سيرة أمراء الحجاز مع الحجَّاج وطرق سياستهم للعامَّة، كما أنَّها تصف العاطفة ومعاني الأخوَّة في الدِّين عند الحجيج وسكان الحرمين، وفيها إيضاح قيمة الأدب ومبلغه؛ وقدر العناية باللغة وعلومها في زمن الرّحلة.

كما أنَّها تخبر عن أمن الطريق إلى الحج عبر العصور، وقد تلمح إلى جهاد المسلمين وشؤونهم العسكرية، ومن خلالها يمكن الإلمام بشيء من تاريخ عمارة الحرمين الشَّريفين والمشاعر المقدَّسة.

وكان للحكام والأمراء الفضل في تسيير الرحلة إلى الحجاز من الغرب والشرق، ويقول محمود الصياد[3] حول هذا المضمون: " أن الحجاج كانوا يتجمعون في قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق،

(1) إسماعيل زردومي، فن الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه دولة في الأدب القديم، باتنة ،2005/2004، ص13

(2)مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ط1، مج2، 1427هـ/2006م ، ص159 .

(3) محمد محمود الصياد: كاتب وأديب مصري، من مؤلفاته رحلة ابن بطوطة، انظر: أدب الرحلات، حسين محمد فهيم، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة، العدد 138، الكويت، 1989، ص86.

مما ينظم إليها من وفود حتى يصبح في النهاية للعراق حجيجه، وللشام حجيجه، ولأفريقيا حجيجها، وتسير القافلة في ألفة ونظام وتعاطف شامل، يحميها جنود الحكام[1] .

ويرجع اهتمام الجزائريين بهذا النوع من الرحلات إلى بعد الديار الجزائرية عن المشرق والحجاز، فكان على من يرحل إلى الحجاز من الأدباء والعلماء أن يخبر مواطنيه عن تلك البلاد، وما شاهدوه من آثار، الصحابة والمشاهد الشهيرة بالإضافة إلى ولوع الجزائريين بالسياحة وارتياد أقاصي البلاد.

- **الرحلة التجارية:**

عرف الإنسان الرحلة قديما، وكان من بين أهدافها التجارة سعيا لطلب الرزق بحكم الموقع الاستراتيجي للوطن العربي الذي يتوسط قارات العالم القديم، وكان مركزا لالتقاء الطرق التجارية بين هذه القارات، وقد ذكر القرآن الكريم رحلتي قريش التجارية وهما رحلتا الشتاء والصيف، شتاء إلى اليمن وصيفا إلى الشام.

فالتجارة كانت من أهم الدوافع التي دفعت الرحالة إلى تدوين رحلته، حتى يعين القارئ على معرفة طرق التجارة البرية والبحرية، ولعل أول ما ارتبطت به الرحلات، علم تقويم البلدان والمسالك والممالك[2] لوصف الطرق، والمناخ، والعديد من الأمور الأخرى وذلك لمعرفة الطرق إلى مكة للقيام بفريضة الحج، وتسهيل عملية التجارة في مختلف البلدان والبقاع.

كانت التجارة في موسم الحج ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر، إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة وبذلك كانت التجارة من العوامل التي تشجع على الرحلات وتنشطها، كما

(1) محمد محمود الصياد؛ مدخل للجغرافيا الإقليمية، دارالنهضة العربية، بيروت، لبنان،1972، ص22

(2) **علم تقويم البلدان و المسالك والممالك:** أطلق العرب على الجغرافيا علم تقويم البلدان أي وصف البلدان لأن الرحالة العرب والمسلمين من، مثل ابن جبير وابن بطوطة وياقوت الحموي كانوا يصفون كل ما يشاهدون في أسفارهم، ولكن بعضهم كالإدريسي اهتم برسم الخرائط ،التي ظلت مرجعاً للعالم فترة طويلة من الزمن، انظر: منجد اللغة والأعلام لعلي بن الحسن الهنائي الأزوي ص92.

أن «ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات

المبحث الثالث: أهمية الرحلة والحاجة إلى دراستها

إنّ من يتعرض لدراسة التاريخ الإسلامي يحتاج في دراسته إلى أن يجمع بين معرفة الناحية السياسية ومعرفة الناحية الاجتماعية، للمجتمعات الإسلامية، ولما كانت كتب التاريخ تعتني دائما بأحوال الملوك والأمراء والحكام أكثر من عنايتها بأحوال الشعوب، لم يكن بد من دراسة رحلات الرحالة المسلمين، الذين دونوا رحلاتهم للوقوف على أحوال تلك البلاد من النواحي الاجتماعية، والاقتصادية للبلاد التي مروا بها، والتي أغفلت من قبل المؤرخين المسلمين، وكان لزاما على دارس كتب المؤرخين أيضا أن يرجع إلى ما كتبه الرحالة، فالرحالة المسلمون هم الذين سجلوا الصورة الواقعية التي عرفتها العصور الوسطى، ونقلوا لنا صورة أقرب إلى الواقعية عن هذا العصر، لأنّ معظم هؤلاء الرحالة وبخاصة المغاربة، اهتموا بالناحية الاجتماعية، ونقلوا لنا مذكرات عن حياة الشعوب في تلك الحقبة الزمنية[1].

فإن كان الرحالة الذي يتنقل بين البلدان، و يتعرف من خلال رحلته هذه على مختلف مظاهر البلاد التي زارها (الدينية و الاجتماعية و الثقافية ..)، فما أهمية تدوينه لهذه الرحلة؟ وبعبارة أخرى ما الذي يدفع الرحالة إلى سرد أحداث رحلته ونقلها إلى القارئ ؟ تجيب سميرة انساعد على هذه الأسئلة في النقاط التالية:

1- تلبية رغبة الآخرين من حكام، وأصدقاء أو أقرباء، بتدوين الرحلة، وإمتاعهم بالاطلاع على ما أثار إعجاب الرحالة ودهشته، فرحه وحزنه،....

2- تقديم معلومات ثرية للقارئ عن المعارف والعلوم، والتعريف بالأعلام وبمؤلفاتهم.

(1) البدرشيني أحمد هاشم؛ مكة والمدينة في القرنين 7هو8هـ في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، ط1، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، السعودية، 2008، ص26.

3- التعريف بالبلدان والممالك التي زارها، وتحديد الطرق والمسالك، وتبيين مواقع الخطر والمشقة. حتى يستفيد الآخرون منها.

4- سرد أخبار الأمم والأقوام – ماضيها وحاضرها – من عادات وتقاليد وطقوس..

5- التأريخ للأحداث المتنوعة، وتقديم معلومات سياسية واقتصادية، عن البلدان المقصودة في الزيارة.

6- رغبة المشاركة في أدب الرحلات عن الرحالة وتدوين أخبار رحلته على منوال ما دونه السابقون من أمثال: المسعودي وابن بطوطة.

7- الدعوة إلى تغيير الجو والاحتكاك بالآخر والانفتاح عليه [1]

كما قد تكون هناك رغبة في إحداث التغيير في وطنه – إذا كان يعاني من الجمود الفكري وذلك عن طريق محاولة نقل مظاهر النهضة والتطور من ذلك البلد الذي زاره – شرط أن تكون ملائمة وموافقة لمبادئ وطنه وتطبيقها.

المبحث الرابع: رحلات الجزائريين إلى الحجاز

– دوافع وعوامل الرحلات الحجازية الجزائرية

من اللافت للنظر أن الرحالة الجزائريين، شدوا الرِّحال لأرض الحجاز، وإلى الحرمين الشريفين خاصة، لأداء فريضة الحج، وزيارة العراق وبيت المقدس، ولعل تلك الرحلات تعود إلى عدة دوافع

منها الدافع الديني فكان الحج من أهم الدوافع التي حفزت الجزائريين على شد الرِّحال، بالإضافة إلى طبيعتهم المحبة للترحال والصبورة على مشاقه وصعوباته، والمتطلعة للاستقصاء والاكتشاف، وساعدهم على ذلك عامل مهم هو ترابط الأمة الإسلامية في العالم الإسلامي، وانتشار الربط

(1) سميرة انساعد، **الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري**، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى للنشر، د ط، الجزائر، 2009، ص 34-35-36 .

والاستراحات والخانات والزوايا في العالم الإسلامي، كل ذلك في تنظيم محكم وضعته الأمة الإسلامية وقامت على رعايته وتنفيذه، وهو نظام الزوايا والمدارس ورعاية ابن السبيل والمحتاج[1].

يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أنّ الرحالة الجزائريين قصدوا الحرمين الشريفين حجاجا لا كمؤرخين أو جغرافيين، وسبقت قلوبهم الأرجل والخيول، وأنساهم شوقهم لرؤية الكعبة المشرفة، وقبر الرسول(ص) متاعب الطريق وعناء السفر[2].

فالاشتياق إلى هذه البقاع المقدسة، كان دافعا ومحفزا لزيارتها، لأنّ الحجاز ليس منطقة جغرافية كباقي المناطق، التي تقصد للسياحة أو طلب العلم، لكنها بلاد لها مكانتها وقدسيتها، تضم تاريخ الأمة والدعوة الإسلامية، وآثار الرسول(ص) وصحابته الأخيار .

كما أن طلب العلم والأخذ من العلماء المشهورين ونشر الدين وتعليمه، والشوق إلى رؤية الدنيا والناس وخوض غمار المغامرة والتجربة، ومعرفة أحوال الدنيا[3]كانت كلها دوافع حثت الجزائريين على شق الآفاق، وترك الرفاق، والارتحال إلى الشام والحجاز والعراق.

فالعهد العثماني في الجزائر (1520-1830) يحتوي على رصيد هام من هذه الرحلات، حيث أصبح الجزائريون أكثر ميلا إلى الترحال والتجوال مشرقا ومغربا داخل الجزائر وخارجها، ومهما حاولنا حصر أسماء هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، فإن ذلك يعتبر محاولة يائسة، ويعود ذلك إلى كثرتهم وسكوت المصادر عن ذكر أسماء الكثير منهم، كما أن العديد من الرحلات قد ضاعت ولم يعثر لها على أثر[4] إلا أن كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تركت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء، ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء لرحالة استطاعوا أن يدونوا رحلاتهم، وأصبحت اليوم من أهم المصادر نذكر منهم:

(1) حسين مؤنس؛ ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص 22-23.
(2) أبو القاسم سعد الله؛ أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر، ج2، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص 13.
(3) البلوي خالد بن عيسى ؛ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،، تحقيق حسن السائح، بدون تاريخ ج1، ص80.
(4) سميرة انساعد ؛ المرجع السابق، ص 43.

- ابن هطال التلمساني أحمد: رحلة محمد الكبير، باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري.

- أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني: الروضة الشهية في الرحلة الحجازية.

- ابن عمار أبو العباس سيدي أحمد: نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب.

- ابن حمادوش عبد الرزاق: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال.

- أبو راس الناصري، محمد بن أحمد: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.

- الورثيلاني، الحسين بن محمد: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار.

زخرت رحلات الجزائريين بأخبار لقاء العلماء ومجالستهم ومناظرتهم، والأخذ والسماع عنهم فضلا عن اقتناء المصنفات ونسخها في شتى بلدان المشرق، وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة ودمشق واسطنبول، وفي ذلك يقول ابن خلدون بأن رحلة المغاربة "كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة[1]

ساهمت جملة من العوامل في تطور فن الرحلة في الجزائر إلى أرض الحجاز خلال الفترة العثمانية نذكر منها:

1- استقرار الوضع السياسي للإيالة الجزائرية خلال هذه الفترة، مما ساعد على حرية التنقل دون خوف من مخاطر الطريق.

(1) رقية شارف ؛ الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م، دار المالكية، ط1، الجزائر،2007، ص 45 .

2- ازدهار الحياة العلمية والأدبية ونشاط حركة التأليف، حيث أنّ حكام هذه الفترة شجعوا هذا المجال ومن أبرزهم الداي محمد عثمان باشا[1] (1766-1791م)، ومحمد الكبير باي ،بايلك الغرب(1779-1796م)، وصالح باي[2] بايلك الشرق(1771- 1792م)[3].

3- تعلق الجزائريين ببلاد المشرق عامة والحجاز خاصة، والشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة، ورؤية قبر النبي- صلى الله عليه وسلم[4].

فكانت هذه الزيارة فرصة للرحالة الجزائريين لتسجيل انطباعاتهم وأحاسيسهم الفياضة، شعرا أو نثرا حسب ما جادت به قريحتهم، وسمحت به ملكتهم وموهبتهم، فانقسمت الرحلة الحجازية إلى قسمين: رحلة حجازية شعرية، وأخرى نثرية.

- **أقسام الرحلات الحجازية الجزائرية**
- **الرحلة الشعرية:**

الرحلة الشعرية لم تكن ضمن اهتمامات الرحالة الجزائريين كغيرهم، وهذا لم يمنع البعض منهم من تدوين رحلاتهم شعرا، كرحلة عبدالله بن عمر بن موسى البسكري، الذي افتتح رحلته الشعرية الحجازية بقوله:

دار الحبيب أحقٌّ أن تهواها ونحِنُّ من طربٍ إلى ذِكراها

وعلى الجفونِ إذا هممتَ بزورَةٍ يا ابن الكرامِ عليك أن تغشاها

(1) **محمد عثمان باشا:** 1765م حاكم جزائري عثماني كان في بداية عهده جنديا بسيطا، انظر: عثمان باشا، سيرته حروبه وأعماله، لأحمد توفيق مدني، ص12.

(2) **صالح باي:** أحد بايات بايلك الشرق. ولد بإزمير تركيا سنة 1725 عينه باشا الجزائر العاصمة بايا على بايلك الشرق (1771م-1792م)، انظر: الموجز في تاريخ الجزائر، يحي بوعزيز، د.ريحانة للنشرالجزائر، 2002، ص28.

(3) -سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص382.

(4) زكي محمد حسن؛ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، 2013 ص11.

فلأنتَ أنتَ إذا حللت بطيبةٍ وظللتَ ترتعُ في ظِلال رُباها

مغنى الجمال من الخواطرِ والتي سلبت قلوبَ العاشقين حلاها[1]

إنّ الرحلة الحجازية المقصودة بالدراسة هي تلك التي تنقل أصحابها من مواطنهم إلى أرض الحجاز، بدنيا لا روحيا وخياليا، واصفين لنا الحياة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والعلمية في مزاراتهم، وبعض المظاهر منها.

كما أنّ الرحالة الجزائريين لم يدونوا رحلاتهم الشعرية باللغة العربية الفصحى فحسب، بل كان للشعر الملحون نصيب منها، وكمثال عن الرحلة وما كتب بالفصيح قصيدة محمد بن العامري التلمساني[2].

- **الرحلات الشعرية النظمية:**

تميزت الرحلات الحجازية النظمية، رغم قلتها بالاستهلال بقصائد المديح، التي تنصب على مدح النبي(صلى الله عليه وسلم) بتعداد صفاته الخلقية والخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته، وزيارة قبره، والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياته، مع ذكر معجزاته، ونظم سيرته والاشادة به، تقديرا وتعظيما.

نظم الشيخ عبد الكريم الفكون، صاحب كتاب منشور الهداية[3] الذي زار الحجاز أميرا لركب الحجيج، ديوانا في مدح النبي صلي الله عليه وسلم، رتبه على حروف المعجم، تجاوزت سبعمائة بيت، تدل على متانة نظمه، وقوة تعبيره، ألفه بعدما ألزمه المرض الفراش، وسار على منواله الشاعر المفتي ابن

(1) سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ص 382.

(2) همزية لأبي عبد الله محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني التازي، المتوفى عام (1162).

(3) عبد الكريم الفكون "منشور الهداية في كشف من ادَّعى العلم والولاية"، تقديم وتحقيق وتعليق، الدكتور أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1987م .

علي والعالم أحمد المانجلاتي[1]، كما احتوت رحلة ابن عمار (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)[2] على بعض قصائده وموشحاته.

– الشعر الفصيح:

– رحلة محمد بن منصور العامري التلمساني:

نظم العالم محمد بن منصور العامري التلمساني قصيدته الهمزية سنة 1162هـ/1748م واصفا فيها مراحل الرحلة من تازة إلى الحرمين الشريفين[3] والتي قال في مطلعها:

أَزْمَعَ السَيْرُ إِذَ دَهْتْ أَدْوَاءُ لِشَفِيعِ الأَنَامِ فَهُوَ الدَواءُ[4]

- رحلة المصعبي 1232هـ/1817م

خرج الشيخ ابراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني المصعبي في رحلة مع ركبه من بني يزقن بغرداية إلى الحرم المكي، ونظم قصيدته الحجازية، التي اشتملت في طياتها على بعض النثر في بدايتها وخاتمتها، وكانت هذه القصيدة المتكونة من 221 بيتا غاية في الاتقان فصيحة اللغة والتبيان، مطلعها:

نَحمَدُكَ اللهُم حَمَدًا مُوافِيًا على نِعَمٍ مِنها بُلُوغِي مُرادِيًا

ومن مختارات القصيدة نذكر:

وَبَعْدُ فَقَدْ خرجتُ للحَجِ قاصِدًا إلَى الكَعْبَةِ البَيْتِ المُحَرمِ غَاليًا

(1) الشيخ أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المؤمن **المانجلاتي**، بأنّه كان من أشهر علماء مدينة الجزائر، انظر: ابن زاكور، نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، ص 423.

(2) أبو العباس سيدي أحمد بن عمار، نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب ، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902م.

(3) أبو القاسم سعد الله؛ المرجع السابق، ص 385.

(4)المصعبي ابراهيم بن بحمان؛ رحلة المصعبي، تحقيق وتعليق يحي بن بهون حاج امحمد، قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2007، ص 16.

ومن الخصائص التي تميزت بها رحلة المصعبي القيمة:

– الورع والتقوى: وصف المصعبي تعلقه بالبقاع المقدسة وصعوبة فراقها، وفراق أهلها ,ومحبته لأهل العلم.

– الصدق: في تدوينه لما لقيه ليكون تذكرة له ولغيره، حيث قال:(بعثني صدق الهمة إلى نظم ما لقيته في سفري ليكون تذكرة لي، ولمن يريد سلوك هذه الطريقة من بعدي..)[1]

– التحري: فقد تحرى الشيخ الوقائع، مثل ما وقع بمصر للمقيمين من الطلبة، وما شاهده بأبواب المسجد الحرام من الأرجاس، وعدم سكوته عن المنكر.

–عرض الواقع: بتشاؤمه في بعض المواقع بالرحلة، كمصر والحجاز، وما استولى على البلدان من سلطان الظلم والفساد، وما كان من مجانبة الناس للذوق السليم، والأخلاق الفاضلة.

– الشعر الملحون:

يرجع المؤرخون سبب انتشار الشعر الملحون في الجزائر خلال العهد العثماني , خاصة في القرن 12هـ هو تراجع الثقافة الجزائرية، وعدم اهتمام حكام الايالة بها، مما دفع بالعلماء والأدباء مسايرة الوضع العام، والكتابة بالشعر الشعبي ومنهم أبوراس الناصري، وابن سحنون الراشدي.

– رحلة سعيد المنداسي 1088هـ/1677م

نظم سعيد المنداسي[2] قصيدته التي تعرف بالعقيقة في الشعر الملحون سنة1088هـ/1677م في حوالي 303 بيت , وكانت زاخرة بألوان الصور البيانية والمحسنات البديعية، التي صورت مشاعره الجياشة

(1) المصعبي ابراهيم بن بحمان، المصدر السابق، ص 06.

(2) **سعيد المنداسي**: من فحول الشعر الشعبي التي جادت بهم منطقة غليزان في الادب والشعر في الجزائر والمغرب العربي عامة في عصر ساد فيه التصوف لم يذكر الباحثون تاريخ ميلاده ولكنهم متفقون على ان من مواليد القرن 11 م فهو ابو عثمان سعيد بن عبد الله المنداس الاصل نسبة الى منداس، انظر: ديوان سعيد بن عبد الله التلمساني المنداسي: تحقيق وتقديم: رابح بونار، ش و ن ت، الجزائر، د ط، ص5.

وحبه للنبي صلى الله عليه وسلم، ووصفت آثار الحجاز والبقاع المقدسة بتفصيل وبراعة، شرحها وعلق عليها مجموعة من المؤلفين، وجعلوا منها رحلة جديدة، تناولت جغرافية وتاريخ الجزيرة العربية، كشرح أبوراس الناصري[1] المعروف بالدرة الأنيقة، وشرح آخر (الأزهار الشقيقة المتضوعة بعرف العقيقة)[2]

- رحلة ابن مسايب 12هـ/16م

صورت رحلة ابن مسايب المسماة (الرحلة من تلمسان إلى مكة) الطابع العام الذي كانت تؤدى فيه فريضة الحج، خلال العهد العثماني، والتي يبدأ مطلعها بـ:

يـا الوَرشـَـان[3] اقْصُـدْ طيبْة وسـَلّمْ عَلى السّكـَـان فِيهـَـا

فوصفت طريق الحج، والمدن التي يعبرها الحجاج، ويتوقفون عندها للاستراحة، والتزود بالمؤونة لمواصلة المسير:

ادْخُلْ مَزْغَنَّة[4] يَا صَاح تَنْسَقَى مَنْ كِيسَان الرَّاحْ

(1) **أبو راس الناصري**: هو محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي علاّمة ومحقق في العلوم الإسلامية وحافظ للحديث النبوي من الجزائر . وُلِد بنواحي مدينة معسكر بالجزائر يوم 8 صفر 1165هـ/ 27 ديسمبر 1751م، وتوفي، يوم 15 شعبان 1238هـ/ 27 أفريل 1823م، ودُفن بمعسكر، انظر: البستان في ذكر الأولياء بتلمسان لابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، مراجعة: الشيخ محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ماي 1986، ص16

(2) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 181.

(3) **الوَرَشَانُ** : طائرٌ من الفصيلة الحماميّةِ، أَكبرُ قليلاً من الحمامة المعروفة، يستوطن أَوربّةَ ويهاجر في جماعات إلى العراق والشام، انظر: معجم المعاني الجامع، ص214.

(4) **مزغنة** : بني مزغنة أو الجزائر، في هذا المكان استقرت خلال القرن8م قبيلة مزغنة المتفرعة عن صنهاجة، التي كانت تحتل المناطق البحرية الممتدة من القبائل الكبرى إلى مصب الشلف، انظر: تاريخ الجزائر الحديث والقديم، لمبارك بن محمد الميلي، ج3، ص43.

– الـرّحـلة النشرية:

- رحلة المقـــري:

أبو العباس أحمد بن محمد المقَّري التلمساني واحد من أعلام القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، سطعت فضيلته العلمية في تلمسان وفاس بالمغرب العربي، وذاعت في مصر والحجاز وبلاد الشام بالمشرق العربي، إبان حكم العثمانيين الأتراك.

شهد له معاصروه بالإمامة والفضل، في الفقه وأصوله، وفي الحديث وعلوم القرآن، وفي علوم العربية. يطرح كتاب الرحلة إلى المغرب والمشرق لأبي العباس أحمد المقري جملة من التساؤلات الفكرية حول نشر الفكر والآداب المغاربية المرتحل إلى بلاد المشرق، وضمن هذا السياق تكشف الرحلة ذلك التكامل الفكري والحضاري في مؤلفات الرحالين من خلال التواصل بين العلماء وطلاب العلم سواء عبر الرحلات أم عبر المراسلات[1]

يحتوي كتاب الرحلة على معلومات هامة، تتعلق بحياة المقري الشخصية في تلمسان والمغرب الأقصى ومصر والشام والحجاز، يعالج في الرحلة الحياة الثقافية والأدبية في عصره، وتتضمن الرحلة معلومات تاريخية عن بلاد المغرب وأرض الحجاز واليمن، وبعض القضايا الفقهية والعقدية وغير ذلك, وإن كان تركيزه كله منصب على الجانب العلمي والثقافي.

- رحلة البوني 1099هـ/1652م

رحلة أبو العباس أحمد بن القاسم بن محمد ساسي التميمي البوني المسماة (الروضة الشهية في الرحلة الحجازية) هي أول رحلة تكلمت عنها المصادر التاريخية، لما تحمله من أهمية رغم أنها من الرحلات

(1) جبور الدويهي، الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر، **مجلة الفكر العربي**، ع2 والثلاثون، جويلية 1983م، ص 58.

الضائعة، فقد اختصت بالمسائل العلمية وترجمت لشيوخ البوني، حيث رحل صاحبها إلى تونس ومصر والحرمين الشريفين وعاش بها فترة طويلة .

– رحلة ابن عمار 1166هـ/1752م

قسم العالم أبو العباس أحمد بن عمار[1] بن عبد الرحمان الجزائري رحلته المسماة (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب) إلى ثلاثة أقسام، وأطلق عليها اسم (مقدمة) وهي الجزء الوحيد الموجود من الرحلة , التي تمّ طبعها، وصف فيها ابن عمار أشواقه للبقاع المقدسة والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم)، كما تحدث فيها عن النوادر والمدائح الدينية، وعن دوافع الرحلة مبينا الضرورة الشرعية لفريضة الحج، أما القسمان الآخران فسماهما (الغرض المقصود)، و(الخاتمة)، هذه الأخيرة مفقودة.

- رحلة أبي راس الناصري 1204هـ/1785م

العالم أبو راس الناصري المعسكري هو تلميذ ابن عمار، من أكثر الرحالة الجزائريين ولعًا بالترحال والتدوين والكتابة، فله أكثر من 50 مؤلفا , ارتحل في سبيل طلب العلم، وأخذ عن شيوخ وعلماء عصره الذين التقى بهم في طريقه.

قسم أبو راس رحلته النثرية الحجازية المسماة (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) إلى خمسة أقسام[2]يعنينا في دراستنا لها الباب الأول الذي تطرق فيه إلى طفولته وتعلمه، وحجاته الحجازية، والباب الثالث، الذي أشار فيه لرحلته للمشرق؛ وما تعلق بها، ولعل هذا الباب هو الذي أطلق عليه اسم – حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي –

(1) عرف به أبو القاسم سعد الله في بحث بعنوان "تقريظ للمفتي أحمد ابن عمار ظروفه ونصه" [أبحاث وآراء 5/ 201-216]، وفي بحث آخر "إجازة ابن عمار الجزائري إلى محمد خليل المرادي الشامي" [تجارب في الأدب والرحلة: 35-70]، كما درس جوانب من حياته وآثاره في تاريخ الجزائر الثقافي ج2 وفي كتاب [مختارات مجهولة من الشعر العربي].

(2) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص396.

- رحـــلة الورثيـــلاني

رحلة الورتلاني هي الرحلة الوحيدة المطبوعة كاملة، على خلاف رحلة ابن عمار، التي لم يبق منها سوى المقدمة، وقد تحدث فيها بإسهاب وتفصيل عن أحوال الجزيرة العربية، في القرن 12هـ وسماها صاحبها الحسين بن محمد السعيد الورتلاني[1] (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار) المعروفة بالرحلة الورتلانية، والتي جمع فيها أخبار حجاته الثلاث لأداء فريضة الحج، جاعلا منها مصدرا هاما لمعرفة الأوضاع والأحوال الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في الأقطار التي مرّ بها.

نستنتج مما سبق ذكره أن الرحلة سلوك إنساني، عرفه الانسان منذ أن دأب على الأرض متحديا كل الصعوبات، ومتجاوزا كل الوقائع، نظرا لأهميتها، وهناك نماذج عدة شاهدة على ذلك و تعددت أنواع الرحلة ودوافعها (كالدافع الديني، والاقتصادي والسياسي، ولطلب العلم) كما أنّ الرحالة الجزائريين أسهموا في نقل مشاهداتهم، وتسجيل ملاحظاتهم، وإن كان تدوين رحلاتهم أقل من جيرانهم بسبب غياب حس التدوين .

– استنتاجات عامة:

من خلال هذا الفصل، يمكن ان نوجز بعض النقاط التي خلصت إليها وهي:

– أن أدب الرحلة في بداياته عبارة عن وثيقة تاريخية وجغرافية، يهدف الرحالة من خلاله البحث عن معلومات جغرافية وتاريخية عن تلك البلاد التي يقصدونها، أي كان يطغى عليها الهدف العلمي، وابتداء من القرن 12م تحولت إلى وثيقة اجتماعية وثقافية، تنقل عادات وثقافات المجتمعات الأخرى.

– لقد شهدت الجزائر في العهد العثماني حركة نشطة نسبيا في تدوين الرحلات، لكنها تبقى قليلة مقارنة بدول عربية أخرى كالمغرب، ورغم هذا فهي مصدر هام من مصادر تاريخ الجزائر، زودت الخزانة التراثية الجزائرية برصيد معرفي مكتوب.

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص 396،

– ظهر لنا من خلال هذه الدراسة، أن الرحلة الجزائرية بعد أن عادت إلى النشاط والرواج خلال القرنين 16م و17م ضاع من مؤلفاتها الكثير واندثر، أما بقي مخطوطا ينتظر التحقيق ليخرج إلى الوجود.

– إنّ الجزائريين كبقية المسلمين في أصقاع الأرض، تنبض قلوبهم بحبّ البقاع المقدسة، وتهفو نفوسهم إلى زيارتها لأداء فريضة الحج أو العمرة، و يعتصرهم الأمل والتمني، ويتأجج في صدورهم الحنين والشوق لمجاورة سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم).

الفصل الثاني

نماذج من الرحلات الجزائرية للحرمين الشريفين في الفترة العثمانية

الفصل الثاني: نماذج من الرّحلات الجزائرية للحرمين الشريفين في الفترة العثمانية

إنّ اختيار رحلات جزائرية تشمل جميع جوانب الدراسة، وتلم بالموضوع من زواياه المختلفة، أمر في غاية الصعوبة، والأصعب منه هو إيجاد هذه المصادر، التي تكاد تكون نادرة، وقد حاولت أن أقطف من كل بستان زهرة كما يقال، حيث قسمت هذا الفصل إلى مبحثين : الأول تطرقت فيه للرحلات الجزائرية النثرية، ووقع اختياري على رحلة الورثيلاني والمقري، والثاني تناولت فيه الرحلات النظمية الفصيحة، واخترت منها رحلة المجاجي، ورحلة المصعبي.

المبحث الأول: رحلة الحسين الورتيلاني(1181هـ-1763م)

- **التعريف بصاحب الرّحلة:**

هو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف، نجل الوليّ الصالح الشيخ علي البكائي البجائي[1]، حيث جاء سلفهم الأول إلى بجاية من تافيلالت بالمغرب الأقصى، واستقروا ببجاية مدة، ثم رحل جدّه أحمد الشريف إلى بني ورتيلان[2]، واتخذها مقرا له ولذريته وطلبته، وأقيمت له زاوية هناك، أصبحت محجة للقاصدين، وقبلة للطالبين.

نشأ الورتيلاني نشأة فقيرة، أساسها التقشف الصوفي، فحفظ القرآن في سن مبكرة، حيث كان يتردد على المدرسة القرآنية، التي يشرف عليها والده، وعلى الزوايا أين تعلم الأمور الفقهية، وعلوم التوحيد، وتفرغ لدراسة اللغة العربية وآدابها، وفي النحو ودراسة التاريخ

(1) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج2، ط1 دار الغرب الإسلامي، 1995 ص44.

(2) **بني ورتيلان**: هي مدينة جبلية صغيرة، وتجمع لعدة قرى يمارس سكانها الزراعة والتجارة، تقع في الجهة الشمالية الغربية على بعد 77 كلم شمال غرب ولاية سطيف، تحدها غربا بجاية وشمالا برج بوعريريج. وهي موجودة بمنطقة قرقور بالقبائل الصغرى، سعيدوني، ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ج1، الجزائر 1988 م، ص100.

ولما أصبح شابا تزوّج من فتاة تدعى عويشة[1]، تنسب إلى عائلة المسعود بن عبد الرحمان، وتفرّغ للعلم والتصوّف على الطريقة الشاذلية، والتدريس في بني ورتيلان، وبعض مناطق الجزائر، كما دعا إلى تعاليم الدين الصحيحة، وحارب البدع، وكان كثير الترحال، حيث أفادته رحلاته وأسفاره كثيرا، فرفعت من شأنه ومكانته في الأوساط الشعبية والرّسمية، وأكسبته خبرة بنفسية الأفراد والجماعات .

وحجّ للبقاع المقدّسة ثلاث مرّات[2]

- الحجة الأولى مع والده عام 1153هـ وعمره ثمانية عشر عاما.
- الحجة الثانية: عام 1166هـ وعمره آنذاك واحد وأربعون عاما.
- الحجة الثالثة: فاستغرقت أعوام 1179هـ- 1180هـ- 1181 هـ وكانت حافلة بالنّشاط العلمي والاتصال بعلماء بارزين، فتلقى عنهم وأجازوه، وتمكن من العلوم الشرعية، وأصبح من كبار العلماء.

تأثر الحسين الورتيلاني بوالده العالم الصالح الشيخ محمد السعيد، كما ذكر من شيوخه عمّه الشيخ محمد الصغير وأيضا محمد الصغير بن رقية، و سيدي علي بن أحمد الذي درس على يديه في زاوية جدّه، فقال :(وقد تعلمت الألفية على تلميذه العلامة سيدي علي بن أحمد، وطريقته شاذلية ناصرية).

كما تعلّم القرآن على يد يوسف بن بشران، وقد التقى الورتيلاني في رحلته إلى مصر بعدة شيوخ أخذ عنهم وأجازوه ومنهم : الشيخ الحفناوي، وعمر الطحلاوي والزيات الشافعي وغيرهم[3]، وقام الورتيلاني بالتدريس في زاويته وفي غيرها أثناء الأسفار، فكثر طلابه وتلاميذه، ومنهم أبو القاسم بن إبراهيم قاضي بجاية، و محمد السكلاوي، والفقيه يحي بن حمزة، وعرف عن الورتيلاني شغفه بجمع العلوم الفقهية على الطريقة الشّاذلية، وكتب وألف في أغراض متعددة، وشرح وعلّق على مؤلفات غيره، في الفقه والحديث, والبلاغة والنّحو، أغلبها ضاع وفقد من المكتبات منها:

(1) أبو القاسم سعد الله؛ تاريخ الجزائر الثقافي ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 408.

(2) يحي بوعزيز، أعلام الفكر، المرجع السابق، ص 45 .

(3) **الورثيلاني** الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" الرحلة الورثيلانية"، تصحيح: محمد بن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م.ص 292 .

شرح وظيفة سيدي يحي العيدلي[1]

رسالة في شرح : وقفت بساحل وقف الأنبياء دونه

- شرح القدسية للشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري.
- شرح على وسطى السنوسي.
- شرح على محل المقاصد للإمام ابن زكري التلمساني.
- تشطير البردة للبوصيري.
- قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلمَّ من 500 بيت.
- كتاب الرحلة السُنّية.
- كتاب المرادي.
- حاشية على حاشية المحقق السكتاني.
- شرح للغز سيدي أحمد بن يوسف المليانى (موجود في الرحلة).
- نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المعروف بالرحلة الورتلانية.

توفي الشيخ الحسين الورتلاني عام 1193أو 1194 هـ /1779-1780م بقرية أنو، ببني ورثيلان، ودفن في مقبرتها، ومازال قبره قائما يزوره النّاس، يتذكرون من خلاله ماضي هذه البلاد.

- **القيمة العلمية للرّحلة:**

إن الرحلة الورثيلانية" من أهم المصادر التي تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة، ومن بين أبرز الرحلات التي شهدتها الفترة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، أراد صاحبها أن تكون حجازية علمية , فجمعت بين أدب الرحلة والكتابة الجغرافية وتدوين التاريخ؛ وفيها نقل الورتيلاني ما عاشه وشاهده في كل مكان وقف عنده، منذ أول يوم اعتزم فيه الرحلة، وقد فصّل فيه تفصيلاً إلى غاية عام 1182م، سنة الشروع في كتابة ما كان قد جمعه في أوراقه الكثيرة،

(1) ظريف أحمد ,قراءة في رحلة الورتلاني، دس، دط، ص 37.

ليُحوِّلها في النهاية إلى عمل تاريخي غاية في الأهمية، وقد اختار لرحلته عنوان: – نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار[1]

قصد الشيخ حسين الورثيلاني الحجاز ثلاث مرّات، أداء لفريضة الحجّ، وتقربا لله عزّ وجل وقطع من أجلها آلاف الأميال، برا وبحرا، جبالا ووديانا، فحين نوى على الحج سنة1179 هـ وعمره 45 سنة توافد عليه محبوه و مريدوه طلبا لمرافقته، حتى بلغ عدد قافلته ثلاثمئة بين رجل وامرأة.

وصف الورتيلاني الطريق التي مرّ بها مفصلة، حيث قصد سيدي خالد و من ثم سيدي عقبة فأولاد جلال ثم إلى قابس ثم قصد الساحل الليبي متوقفا ببرقة وطرابلس، واصفا هذه الأماكن، ووصف مصر و أهلها و علمائها وعاداتها، من مصر توجه إلى الجزيرة العربية و تحدث عن ساحل البحر الأحمر وعن المدن والقرى التي تحاذيه وصولا إلى مكة، التي وصفها أيام الحج و وصف المدينة و حياتها .

و هكذا يتضح أن رحلة الورثيلاني، التي كتبت في 816 صفحة، تمثل موسوعة أخبار عن جزء كبير من أخبار العالم الإسلامي في القرن 12هـ/18م فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال، و يقول أبو القاسم سعد الله عن الورتيلاني أنّه: (أسهم بعمل كبير في التاريخ , فالرحلة تمتاز بكونها الوحيدة المطبوعة في شكلها الكامل .....ومنها أيضا أنها الوحيدة فيما وصل إلينا التي تتحدث عن أحوال الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر الميلادي)[2]

ومما جاء في مقدمة هذه الرحلة في نسختها المطبوعة، التي حققها وقدّم لها الأستاذ محمد بن أبي شنب (مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر سنة 1908م) ما نصّه: "...أما بعد فالرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار للإمام العلامة و الأستاذ الفهامة الشريف النوراني الشيخ الحسين ابن محمد الورثيلاني نسبة إلى بني ورثيلان قبيلة قرب بجاية، أنفس تصنيف رصعت جواهره في وطن الجزائر وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي و الحواضر لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف

(1) الحفناوي أبي القاسم؛ تعريف الخلف برجال السلف، ج2، د.بيير فونتانة، الجزائر، 1906،ص133.

(2) أبو القاسم سعد الله، تاريخ لجزائر الثقافي، المرجع السّابق، ص 410.

الطرائف، وأوابد العوائد، و فرائد الفوائد، و نسق كالأوصاف الكاملة، وحلّ المسائل الشاكلة تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارة واردا حياض التفسير والتاريخ والتجويد، وآونة طامحا إلى التصوف والنصح والوعظ باذلا في ذلك كله غاية الجهد والنكظ فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة، ومرصعا وشاحه بياقوت الأشعار الرفيقة وغير ذلك مما هناك"[1]

وشرع الورثيلاني في تدوين رحلته نزهة الأنظار مع تلامذته، اعتمادا على مشاهداته، وما سجّله عن العلماء، واستنادا إلى مجموعة هامة من الكتب والمصادر التاريخية كالبكري، والمقريزي، والشطيبي ,والدرعي والعياشي[2]، وعلى كتاب (نبذة المحتاجة مما ذكره ملوك صنهاجة) وكتاب(الجمان في مختصر أخبار الزمان)

كما اعتمد الورثيلاني على مصادر متعددة، حيث دوّن ملاحظاته الشخصية، وقام بتسجيل ما رآه في بيئته القريبة والبعيدة، واعتمد على الرواية الشفوية لأكثر شيوخ وعلماء الزوايا، في مختلف مناطق البلاد.

وكان كلما توقفت قافلته لنيل الراحة، أخذ أوراقاً يسجل فيها ملاحظاته ومادته حتى لا تضيع من ذاكرته، ولعله جمع الكثير من الأخبار عن الأعيان والعلماء في كل بلاد زارها باتجاه الشرق في تونس وليبيا، أين كانت له فرصة اللقاء بأمير فزان، وفي مصر التي أعجبته كثيراً وخصّها بنصيب هام من رحلته حيث سجّل ما لاحظه من عادات المصريين وآثار البلاد وعيونها وغير ذلك مثلما سيأتي تفصيله لاحقا.

وكانت الفرصة للجلوس إلى علمائها إلى غاية وصوله إلى الحجاز، مقصد الحج وفيها التقى الورثيلاني بأمير مكة[3].

(1) الورتلاني؛ المصدر السابق، ص05 .

(2) العياشي أبي سالم عبد الله بن محمد ؛ الرّحلة العياشية (1661- 1663)، تح : سعد الفاضلي , سليمان القرشي، ج1, ط1، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، الامارات، 2006

(3) سعد الله؛ تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 410.

اشتملت الطبعة على عدة فهارس، وانتهت الرّحلة بخاتمة منقولة عن أصل نسختين اعتُمِدتا في الطبع جاء فيها: " ... انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ الصالح والقطب الواضح شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة، شمس العقول، الجامع بين المعقول والمنقول، ذي النور الرباني والوهب الصمداني، الشيخ سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورتيلاني بلغنا الله وإياه جميع الأماني وكان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان 1182م[1].

المبحث الثاني : رحلة أحمد المقـرّي

– التعريف بصاحب الرّحلة:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقرّي التلمساني، ولد بتلمسان سنة 986هـ –1578م، اعتمادا على رواية الأستاذ عبد الوهاب بن المنصور[2]، محقق كتاب روض الآس، أصل أسرته من مقرة [3]، بفتح الميم وتشديد القاف وفتحها وفتح الراء – ضبطها المترجم نفسه في أزهار الرياض بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة (مَقَّرة)، وقيل بفتح الميم وسكون القاف.

وكان جدّه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقري أحد قضاة فاس المشهورين، فقيها، غزير العلم، كثير الحفظ، مشهود له بالعلم والورع والتقوى.

---

(1) الورتلاني؛ المصدر السابق، ص 713.

(2) أحمد المقري؛ روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضريتين مراكش وفاس،ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1983، ص165.

(3) **مقرة:** قرية من قرى الزاب يقال لها مقرة، بفتح القاف وتشديدها تقع بين مدينة بريكة و المسيلة .أول من ذكرها في رحالة المسلمين اليعقوبي المتوفى سنة 284 هـ،827 م، حيث قال " ومدينة يقال عنها مقرة، لها حصون كثيرة، أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم يقال لهم طريرة، حولها قوم من البربر يدعون بنو زنوج ". كمال قال عنها ياقوت الحموي " مقرة بقاف مسكونة وراء مفتوحة، مدينة في المغرب، قريبة من قلعة بني حماد بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ، بها مسلحة السلطان ضابط الطريق، ينسب إليها " عبد الرحمن بن محمد المقري ". و قال الإدريسي " مقرة مدينة عظمى، فيها منبر وعليها سور أهلها من بني ضبة بها قوم من العجم وحولها قوم من البربر، بها مزارع وحصون كثيرة، أهلها يزرعون الكتان أنظر حسن الوزان, وصف افريقية ,ج2 ص 52.

نشأ المقرّي في تلمسان وبها حفظ القرآن الكريم، وأخذ علمه عن مشايخها المشهورين، حيث تعلّم وتكوّن على يد عمّه أبو عثمان سعيد مفتي تلمسان.

ارتحل المقري إلى المغرب الأقصى، هاربا من الفتن التي نشبت بين تلمسان والعثمانيين، فدخل فاس سنة 1009هـ ولقي بها المشيخة، ثم عاد إلى بلاده فمكث سنتين ثم غادرها إلى فاس ثانية سنة 1013هـ، وبها ألقى عصاه منقطعا إلى العلم والتعمق في البحث، ودرس فيها الحديث الشريف وبرع في علوم الشريعة والأدب والتاريخ، والتقى كثيرا من العلماء والمشايخ.

تولى المقري الوظائف السامية بالمغرب كالإمامة والخطابة بجامع القرويين بفاس سنة 1022هـ، ثم الفتوى.

ولما انقلبت أحوال المغرب السياسية، وكثرت الفتن وانقسمت الدولة السعدية إلى مملكتين عزم المقري على الرحيل إلى المشرق تاركا المنصب والأهل والوطن، ويقال أنّ السبب في خروجه اتهامه بالميل إلى قبيلة (شراقة) في تحيزها لأحد الأطراف المتنازعين، وكان المقري عالما طارئا عليها وكانت شراقة تلمسانية الموطن، ويقال أنه حين أحس بأنّ الأمور تسير على غير ما يروم ادعى التوجه إلى الحج سنة 1027هـ.

وسجل معاصره عبد الكريم الفكون[1]، سبب هجرة المقري من المغرب فأرجعه إلى فساد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها حتى تداعت للخراب.

استقر المقري بمدينة الجزائر سنة 1027هـ بعد أن مرّ بمسقط رأسه تلمسان، واتصل في الجزائر بالعلماء وشرع في التدريس وخصوصا التفسير، وتبادل مع كبير علماء الجزائر عندئذ وهو سعيد قدورة الألغاز والنكت والمعلومات، ثم سافر من الجزائر إلى تونس بالبر أيضا، ومنها إلى مصر ومنها بحرا إلى جدة فأدى العمرة سنة 1028هـ ثم فريضة الحج في السنة الموالية.

(1) عبد الكريم الفكون، منشور الهداية ، ص 124 .

عاد إلى مصر سنة 1029هـ وتزوج بها، وظل يتنقل بين مصر والحجاز ثم أضاف إلى ذلك بيت المقدس ودمشق، فحجّ حوالي خمس مرات وسافر إلى القدس عدة مرات وذهب إلى الشام على الأقل مرتين.

ومن مصر شرع يكرر رحلاته إلى البقاع المقدسة، فذكر سنة (1029هـ/ 1631م) عن زيارته (مكة) و(المدينة) و(بيت المقدس) إنّه زار مكة "خمس مرات،: (وحصلت بالمجاورة فيها المرات، وأمليت فيها على قصد التبرك دروساً عديدة... ووفدت على طيبة المعظمة ميمّماً مناهجها السديدة سبع مرات، وأطفأت بالعود إليها الأكباد الحرار، واستضأت بتلك الأنوار... وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة ومسمع... ثم أبت إلى مصر مفوّضاً لله جميع الأمور، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور...فتحركت همتي... للعودة للبيت المقدس وتجديد العهد بالمحل الذي هو على التقوى مؤسس، فوصلت أواسط رجب وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوماً بدا لي فيها بفضل الله وجه الرّشد وما احتجب، وألقيت عدة دروس بالأقصى والصخرة المنيفة، وزرت مقام الخليل ومن معه من الأنبياء ذوي المقامات الشريفة"[1].

وشاء الله أن يقيم المقري اثني عشرة سنة أخرى من حياته بعيدا عن وطنه، ذلك أن أجله قد وافاه سنة 1041هـ/1632م وهو في مصر يستعد للعودة إلى دمشق.

(1) أحمد المقري نفح الطيب، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، ج1،دارصادر، الجزائر، 1968 ص: 56- 57.

ألّف المقرّي كتبا كثيرة أغلبها في المشرق بلغ عددها ثمانية وعشرين مؤلفا[1]، نشر بعضها، لكن معظمها لازال مخطوطا أو مجهولا، وأهم مؤلفاته موسوعته (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب)[2] الذي ألفه بطلب من أعيان الشام، ومن مؤلفاته الأخرى:

1- إتحاف المغرم المغرى في شرح السنوسية الصغرى، وهو تكميل لشرح السنوسية في علم التوحيد

2- أزهار الرياض في أخبار عياض، وهو أشبه كتبه بكتاب نفح الطيب، وقد ألفه أثناء إقامته بفاس (1013هـ-1027هـ).

3- أزهار الكمامة في أخبار العمامة ونبذة من ملابس المخصوص بالإسراء والإمامة، وهو بحث في عمامة وملابس النبي صلى الله عليه وسلم.

4- إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة، وهو منظومة بدأ تأليفها أثناء زيارته للحجاز سنة 1027 هـ، وأتمها في القاهرة سنة 1036هـ

5- حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي .

6- البدأة والنشأة، وهو كتاب كله أدب ونظم.

7 -الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين، وهو كتاب في الأسماء النبوية.

8- روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، والكتاب عن حياته بالمغرب.

---

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة، ش و ن ت،الجزائر، 1981، ص384.

(2) محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني الخطيب و يكنى أبا عبد الله، هو شاعر وكاتب وفقيه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس (لوشة، 25 رجب 713 هـ/1313م - فاس، 776 هـ/ 1374م) درس الأدب والطب والفلسفة في جامعة القرويين بفاس. قضّى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نصر وعرف بذي الوزارتين: الأدب والسيف. نُقِشت أشعاره على حوائط قصر الحمراء بغرناطة.انظر: نفح الطِّيب من غُصن الأندلس الرَّطيب - للمقري 6/312.

9- عرف النشق في أخبار دمشق.

10 - فتح المتعال في مدح النعال، وهو كتاب صنفه في وصف نعال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ألفه في المدينة المنورة.

11 -قطف المهتصر في شرح المختصر، وهو شرح على حاشية مختصر خليل في الفقه المالكي.

12 -أنواء نيسان في أنباء تلمسان، وهو كتاب في تاريخ تلمسان وأهلها.

14- الجمان في أخبار الزمان.

14- الرحلة إلى المغرب والمشرق,(موضوع دراستنا).

- **القيمة العلمية للرّحلة:**

تعتبر الرحلة إلى المغرب والمشرق[1]من المؤلفات الأخيرة التي وضعها المقرّي، يشير محقق الرّحلة الدكتور محمد بن معمر أنّ المخطوط قبل أن يؤول إلى جورج ديلفان، كان في مكتبة الشيخ حميدة بن محمد العمالي، ويذكر في المقدمة أنّه لم يعثر على كتاب بهذا العنوان ضمن مؤلفات المقري، التي وضعها مترجموه القدامى والمحدثين، كما انعدمت الاشارة إلى أي عنوان في ثنايا الرّحلة من طرف المؤلف، حيث اعتمد المحقق على نسخة واحدة في التحقيق مبتورة البداية والنهاية.

غادر المقري المغرب من تطوان على متن سفينة إلى الجزائر، ومنها إلى تونس فسوسة وصولا إلى الاسكندرية، ومنها إلى القاهرة، التي دخلها في 1028هـ، وفي ذي القعدة من نفس السنة توجه صوب مكة المكرمة ثم إلى المدينة المنورة، وفي 1029هـ /1620م عاد من الحرمين الشريفين إلى مصر[2]

(1) رحلة المقري إلى المغرب والمشرق؛ تأليف أبي العباس أحمد المقري، تح: محمد بن معمر، جامعة وهران، دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1425هـ/2004م . ص8

(2) نفسه، ص8.

لم تكن رحلة المقرّي مجرد مشاهدات سياحية، كما لم يهتم المقرّي كثيرا بوصف مظاهر العمران في المدن التي زارها في المشرق أو المغرب لأنها حسب رأيه امور معروفة لدى النّاس، وركّز اهتمامه لشيء آخر يراه أهم وهو مظاهر الحياة العلمية، فوصفها وصف خبير، له دراية وثقافة عالية، لم يتصف بها الرحالة الذين سبقوه.

وقد تضمنت رحلة المقرّي معلومات خاصة متصلة بالحياة الشخصية للمؤلف، تتعلق بزوجاته وأولاده، وسبب رحلته من المغرب الأقصى إلى المشرق، التي تضاربت حولها الآراء، فالبعض يرى أنّها سياسية، وأنّ سلطان المغرب هو الذي أجبر المقري على مغادرة المدينة، وأنّه خرج متخفيا، وهذا ما تثبته نصوص الرّحلة، ومن يرى أنّ المقرّي استأذن ملك المغرب الغالب بالله عبد الله المأمون في السماح له بالرّحيل[1]، فأذن له بذلك، وكتب في شأنه رسالة إلى شريف مكة يخبره بقدوم المقرّي ويبلغه عن علمه ومكانته، ويوصيه به خيرا.

يشتمل كتاب الرّحلة مجموعة رسائل وخطابات تبادلها المؤلف مع أعيان عصره، من الأدباء والشعراء، والعلماء والفقهاء، والقضاة والأمراء، من المغرب العربي ومصر والحجاز والشام، وتحتوي على مظهر من مظاهر النشاط الثقافي للمؤلف، المتمثل في إجازته النظمية والنثرية التي أجاز بها طلبته وعلماء عصره[2].

وتضمّ الرّحلة كذلك مجموعة كبيرة من القصائد من نظم المقرّي وبعض الأدباء[3] في فن المـدح، وورد في الرحلة بعض الإشارات التاريخية المتناثرة في ثنايا رسائل المقرّي إلى بعض أعلام عصره حيث نقل إلينا صورة عن الحياة الفكرية والسياسية والثقافية والدينية في البلاد الإسلامية، وعرّف المغاربة بما يجري في

(1) يحي بوعزيز؛ أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص152.

(2) ابن مريم، المصدر السابق، ص155.

(3) ابن الخطيب لسان الدين، الأحاطة في أخبار غرناطة، تح:بوزياني الدراجي، ج2، دار الأمل للدراسات، الجزائر، 2009، ص194-195.

المشرق من حركة علمية وأدبية، وقرّب ما كان يجري في المغرب إلى المشارقة، وبيّن القواسم المشتركة بين المذاهب الفكرية والدينية بعيدا عن الصراعات السياسية والمذهبية .

ويلاحظ في رحلة المقري الانقطاع الغريب بين الموضوعات، فهي مبنية على مادة نصية تلقاها المؤلف من علماء عصره، من تقريظ أو مدح، أو ما صدر عنه من مدح وشكر، دون خضوع لبناء جغرافي معين، أو ترتيب زمني، ووجود تداخل كبير بين أخبار ورد ذكرها في نفح الطيب، أعيد ذكرها في الرّحلة، وقد يعيد الحادثة ذاتها في الرحلة.

المبحث الثالث: رحلة المجاجي(1063هـ-1652م)

تعدّ رحلة المجاجي من الرحلات الحجازية الشعرية القليلة التي نظمت بالشعر الفصيح، وأسهمت في تسليط الضوء على بلاد الحرمين الشريفين، في مختلف المجالات في الفترة العثمانية.

- **التعريف بصاحب الرّحلة:**

عرفته محققة الرحلة آل سيد الشيخ سعاد بانه عبد الرحمان بن محمد بن الخروب المجاجي، كما عرّف نفسه في الأبيات الأخيرة من رحلته، أصله من مجاجة، لم توجد له ترجمة بالرغم من شهرته، وقد أشار محمد ابن أبي شنب [3] أنّه ربما تكلّم عن نفسه أو عن رحلته في الجزء الأول المبتور منها.

وذكرت ان المصادر اختلفت حول الفترة التي عاش فيها المجاجي، فعادل نويهض وأبو القاسم الحفناوي، يترجمان له خلال القرن 13هـ- 19م، أما أبو راس الناصري فيرى أنّه عاش خلال القرن 11هـ-17م، واستنادا لما جاء في أواخر أبيات رحلته فإنّه عاش خلال القرن الحادي عشر الهجري[1]

(1) آل سيد الشيخ سعاد، رحلة المجاجي – دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير غير مطبوعة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، تاريخ المناقشة2008/2007، ص 2

وعن تعلمه فالت انه تعلّم المجاجي على يد محمد بن علي بهلول وأبي علي ثم انتقل إلى تلمسان، وأخذ عن شيوخها ليواصل مسيرته إلى فاس، وقد ذكر شيخا واحدا في رحلته، درس على يديه صغيرا وهو أبو القاسم الصالح قال عنه

وذكرات ان الرحلة تؤرخ للمؤلف، كمصدر وحيد للتعريف بأصله وعصره، وشيوخه و العلوم السائدة في وقته، حاول من خلالها رسم معالم طريق الحج جغرافيا، مبينا أماكن الأمان والماء والمؤونة، ليقتفي أثرها الحجيج المتوجهين للبقاع المقدسة، فهي بحق مرآة عاكسة لعصره.

فالرّحلة المسماة (رحلة المجاجي) عبارة عن قصائد شعرية فصيحة، بسيطة التعبير، متنوعة الموضوعات، جمعت بين طياتها ,التصوف والتاريخ والجغرافيا، والبلاغة والتراجم... وتضمنت معلومات متناثرة عن الحالة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية واختلفت، وتباينت أغراضها بين مدح ورثاء وهجاء[1]

المبحث الرابع : رحلة المصعبي(1196هـ-1781م)

- التعريف بصاحب الرّحلة:

هو الشّيخ إبراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني المصعبي (ت 1232 هـ/ 1817 م)، ولد ببني يزقن[2]، بولاية غرداية، وهو أحد أعلام الإباضية، وشيوخ واد ميزاب، برز في التفسير وشرح الحديث والمنطق, وكتابة السّير وغيرها، تولى رئاسة مجلس العزابة ببني يزقن، وقلّد

(1) آل سيد الشيخ سعاد، المرجع السابق، ص 2، 3

(2) **بني يزقن**: أو آت يزجن من أشهر قرى مزاب وهي من أحياء ولاية غرداية، أسست عام 720هـ /1321م، أصل المدينة (تافلالت)، وقد عرفت عدة توسعات، وهي تقابل قصر مليكة وبنورة في ضفة وادي مزاب، الحاج سعيد يوسف بن بكير، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، ط1 :1991، ص 22

منصب الإفتاء والتدريس والوعظ، له كتاب (المعدن المصون على سورة الكنز المدفون) و(مختصر المناسك ومهذب المسالك)[1]

قال فيه الحاج سعيد يوسف (كان مؤلفا وشاعرا، وعالما وحكيما، وأدبيا فيلسوفا، ورحّالة)[2]، تناولت قصيدة المصعبي المنظومة بالشّعر الفصيح رحلته الحجازية، انطلاقا من بني يزقن بغرداية التي خرج منها يوم 15 رجب 1196هـ /1781م وصولا للحرمين الشريفين، حيث دخل مكة في 7 ذي الحجة 1196هـ /1781م، والمدينة المنورة في 23 ذي الحجة 1196 هـ /1781 م، وعاد أدراجه إلى مسقط رأسه، في أوائل ربيع الثاني 1197هـ /1782 م بعد أداء مناسك الحج، وزيارة الأماكن المقدسة، استغرقت مسيرة العودة ثلاثة أشهر على مرحلتين من الحجاز إلى مصر، ثمّ من هذه الأخيرة إلى واد مزاب[3]،، على عكس رحلة الذهاب التي استغرقت 120 يوما، وقد يكون سبب اختلاف مدة الذهاب والعودة الخبرة التي اكتسبها ركب المصعبي من مساره الأول[4].

وتشير بعض أبيات قصيدته إلى سبب رحلته للحرمين الشّريفين، وتاريخ وطريق الرّحلة، فيقول فيها:

وبَعَدُ فَقَد خَرجْـتُ للحَـجّ قاصِـدًا إلى الكَعبَـة البيتِ المحرّمِ عاليّـًا

وقَد كَان في يَومِ الخَميْـس خُروجِنـَـا لَدي نِصفِ رجَب مَن شُهورِ الإلهِيَا

فَأحْرمْتُ مِن تَحت الميزابِ لحَجّتـي بيَومِ الخَميْـس كَان يَوم الثّمانيـَـا

(1) المصعبي، المصدر السابق، ص2_41.

(2) لحاج سعيد يوسف؛ المرجع السابق، ص84.

(3) **وادي مزاب**: توجد به ستة قرى أكبرها غرداية و تضم هذه البلدة ألفين وأربعمئة مسكن، بما في ذلك المساجد، ولا يستخرج الماء إلا من الآبار..وهي ليست تحت نفوذ أي سلطان، يتكلم السكان فيها البربرية، المصعبي، المصدر السابق، ص42، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ,ط2،ج2، ص254.

(4)المصعبي؛ المصدر السابق، ص 44 .

- **القيمة العلمية الرّحلة:**

تعدّ رحلة المصعبي من أهم الرحلات الحجازية الشعرية، المنظومة بالشّعر الفصيح، المتقن المحكم البناء، والتي جاء في مطلعها:

فنَحْمَـدُك اللـَهُم حَمْـدًا مـُوافيـًا عَلـَى نِعَمٍ مِنهَـا بُلوغـِـي مُراديـَـا

لكونها اشتملت على معلومات في مجالات مختلفة، وعلى حقائق تاريخية، كذكره للمكوس التي تفرضها السلطة العثمانية على أمتعة الحجاج في الجزائر، وعملية الحجز عليها، واضطهاد المصريين للإباضين في تلك الفترة، وتطرقت إلى العادات والاحتفالات المرافقة لرحلة الحج، حيث أشارت الرحلة إلى احتفالات بربر وادي مزاب عند خروجهم إلى للبقاع المقدسة.

وقد تحرى المصعبي الوقائع، وسجل مشاهداته لما وقع للطلبة المقيمين بمصر، ونقل إلينا ما كان سائدا من ظلم وطغيان وفساد في بعض البلدان التي مرّ بها، وكان صادقا في تدوين أحداث رحلته لتكون عبرة له وتذكارا لغيره، يقول: (بعثني صدق الهمة إلى نظم بعض ما لقيته في سفري، ليكون تذكرة لي ولمن يريد سلوك هذه الطريقة من بعدي ...)[1]

وكان المصعبي ورعا تقيا، لدرجة أنّ فضل مرة المبيت على قارعة الطريق على تقديم الرشوة أو المكس، كما كان شديد التعلق بالبقاع المقدسة، التي صعب عليه فراقها .

والقصيدة التي نظمها المصعبي في 221 بيتا[2]،من البحر الطويل، سجّل فيها رحلته التي دامت تسعة أشهر، تكمن أهميتها في أنّها تمّت في ظروف صعبة، ومرّت بمواقف حرجة، قدمت صورة دقيقة عن الصعاب التي يتلقاها الحاج القاصد بيت الله الحرام في القديم، ويطلع من خلالها على أحوال المسلمين

(1) المصعبي؛ المصدر السابق، ص55.

(2) نفسه، ص58.

حكاما ومحكومين، التي تبعث على الشفقة والأسى، بسبب بعدهم عن تطبيق شرع الله في سلوكهم، فحالتهم متردية متدنية .

كما تعتبر رحلته من المصادر الأساسية، التي لا يمكن الاستغناء عنها للتعرف على أوضاع الجزائر وتونس وليبيا ومصر والحجاز، في القرن 12هـ/18م، فهي تسجيل حي للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

كما أنّها تكشف عن فترة غامضة في الأدب الجزائري، وهي فترة الحكم العثماني في الجزائر، فهي تصور الحالة الأدبية في تلك الفترة، التي كانت راكدة وضعيفة، وتبرز مع أعمال باحثين آخرين عن نتاج هذه المرحلة، وتكتسي الرحلة أهمية بالغة للدقة التي اتبعها المصعبي في تحديد الأماكن، وتاريخ المراحل باليوم والشهر والسنة.

لقد كان للشيخ المصعبي جهودا في التفسير، وفي شرح الحديث، ووضع الحواشي، وفي نثر المنظومات والتلخيص، وكتابة السير، و وضع التعاليق، وشرح الأمثال وبيان معانيها، وفي علم المنطق، كما له دور في نظم الشّعر بكل أغراضه وضروبه، ومن بين مؤلفاته :

1- ديوان شعر في مختلف الأغراض مبثوث في مجموع مؤلفاته .

2- المعدن الصون على سورة الكنز المدفون[1].

3- أصداف الدّرر وأكمام الزّهر الموضوعة على سورة العصر.

4- شرح موازين القسط لأبي مهدي عيسى بن اسماعيل.

5- مختصر المناسك ومهذّب المسالك مختصر من مناسك الحج, للشيخ اسماعيل الجيطالي.

(1) يقصد به هو تفسير لسورة الفاتحة

6- قصيدة البردة في مدح خير البرية[1].

انطلقت رحلة المصعبي من مسقط رأسه ببني يزقن إلى ولاية غرداية، حيث مقام الشيخ حمو والحاج الذي يزار للتبرك والذكرى[2]، واجتمعت القافلة هناك، ليودعهم الأهل والخلان بالأدعية ومنها إلى قابس وطرابلس، وكرداس وبولاق بمصر، حتى وصلوا الحجاز، حتى وصل ركبهم إلى البيت الحرام في شهر ذي الحجة 1196هـ، ومنه إلى المدينة المنورة.

وأخيرا يمكن القول، أنّ رحلة إبراهيم بن بحمان المصعبي كانت من بين الرّحلات الشعرية القليلة التي أرخت للفترة التي عاش فيها المؤلف، ونقلت صورة دقيقة عن عصره، وعن البلدان وأحوالها، وعن تعلّق الجزائريين بالبقاع المقدسة ومزاراتها، ولهفتهم وشوقهم لزيارتها، والتّمتع برؤية قبر النّبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

وصفوة القول، أنّ الرحلات التي أشرت إليها في هذا الفصل، تمثل أهم الرّحلات الجزائرية الحجازية في الفترة العثمانية، كانت مرآة عاكسة لعصرها، ناقلة لما رأته أعين مؤلفيها، كل حسب معارفه وسعة اطلاعه، وثقافته وتوجهاته، وما جادت به قريحته، فصوّر وقائع رحلته نثرا كالورتيلاني والمقري، أو شعرا ونظما كالمجاجي والمصعبي، إلى جانب رحلات أخرى لم يتسع الوقت و مجال الدّراسة للخوض فيها، وما اخترته يمثل عيّنات ونماذج فقط، ربما هذا سيفتح آفاقا أوسع وأرحب أمام الطلبة للبحث فيها مستقبلا.

- **استنتاجات عامة:**

- شهدت الجزائر في العهد العثماني حركة نشطة نسبيا في تدوين الرحلات، لكنها تبقى قليلة مقارنة بدول عربية أخرى كالمغرب، ورغم هذا فهي مصدر هام من مصادر تاريخ الجزائر، زودت الخزانة التراثية الجزائرية برصيد معرفي مكتوب.

(1) قصيدة البردة : فرغ منها المصعبي أواسط محرّم 1196هـ، طبعت دون تحقيق .
(2) المصعبي ؛ المصدر السابق ؛ ص44.

- – تنوعت الرحلات الجزائرية في شكل كتابتها بين النثر والشعر، حسب ميول كل رحالة، وقدرته على نظم الشعر، فالورثيلاني دوّن رحلته نثرا، والمجاجي والمصعبي نظماها شعرا فصيحا، أما المقري فمزج بين النثر والشعر، وكل هذه الرحلات لا تخلوا من الجانب الجمالي الإبداعي.
- أن الرحلة الجزائرية بعد أن عادت إلى النشاط والرواج خلال القرنين 16م و17م ضاع من مؤلفاتها الكثير واندثر، أما بقي مخطوطا ينتظر التحقيق ليخرج إلى الوجود.
- تنوعت الرحلات الجزائرية في شكل كتابتها بين النثر والشعر، حسب ميول كل رحالة، وقدرته على نظم الشعر، فالورثيلاني دوّن رحلته نثرا، والمجاجي والمصعبي نظماها شعرا فصيحا، أما المقري فمزج بين النثر والشعر، وكل هذه الرحلات لا تخلوا من الجانب الجمالي الإبداعي.

الفصل الثالث

صورة مكة والمدينة من خلال نصوص الرحلات الجزائرية في الفترة العثمانية

الفصل الثالث: صورة مكة والمدينة من خلال نصوص الرحلات الجزائرية في الفترة العثمانية

إنّ الخوض في تاريخ الحرمين الشريفين بالاعتماد على ما دونه الرّحالة، وما تضمنته رحلاتهم المنشورة، من شأنه أن يأتي بالجديد، ويَعِد بإضافة علمية إلى ما هو موجود من الدراسات، حيث قدمت الرّحلات الجزائرية في العهد العثماني المتمثلة في رحلة المقري1041هـ/1632م، ورحلة المجاجي 1063هـ/1652م، و رحلة الورثلاني1179هـ/1765م، ورحلة المصعبي1196 هـ/ 1781م وصفا للحالة السياسية، ومعالم الحياة الاجتماعية لسكان الحرمين، فضلا عن مكانة الحجاز الدينية، والتي يفد إليها المسلمون من البلاد العربية والإسلامية، لأداء فريضة الحج، وتشهد نشاطا تجاريا يمارسه الوافدون إلى تلك البقاع المقدسة مع السكان المحليين.

وقد حاولت من خلال هذا الفصل الاستفادة من بعض نصوص الرّحلات الجزائرية في الفترة العثمانية، لتعزيز المحتوى العلمي للدراسة، والإحاطة بتاريخ الحرمين الشريفين.

المبحث الأول: الحياة السيـــــاسيـــة

نقلت نصوص الرحلة الجزائرية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي صورة عن الأوضاع السياسية بمكة والمدينة المنورة، وإن كانت مقتضبة، حيث عرفت تطورا واضحا في مجال الحكم والإدارة خاصة بعد دخولها في نطاق الدولة العثمانية.

- **نظام الحكم:**

دخل الحجاز تحت النفوذ العثماني[1]في أوائل القرن 10 هـ، 16 م، فحافَظ العثمانيون على الأوضاع السائدة في الحرمين الشريفين، ولا سيَّما الوضع الثقافي والاجتماعي والإداري، وكان التقسيم الإداري في أوائل الحكم العثماني للحجاز يختلف عن آخره؛ فمع تسمية الوالي – الذي يتمُّ تعيينه من

(1) عماد عبد العزيز ؛ الحجاز في العهد العثماني، دار الساقي للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، 2008، ص 59.

استانبول – في البداية بأمير الأمراء، وتسمية أمير المدينة المنوَّرة – الذي يُعيَّن من إسطنبول[1] بشيخ الحرم، وتسمية أمير مكة المكرمة – الذي يُختَار من الأشراف – بشريف مكة، إلا أنه تغيَّر اسم بعض تلك الوظائف في العهد الأخير، حيث أصبح يُطلَق على الأول والي الحجاز، وعلى الثاني محافظ المدينة المنوَّرة، واحتفظ الباقي بالتسمية نفسها، وكانت ولاية الحجاز تتكوَّن من ثلاث سناجق[2]: مكة المكرمة وهى مركز الولاية، والمدينة المنوَّرة. وجدة، في الوقت الذي كانت جدة تشكِّل مع الحبشة إمارة في بدايات عهدها، وكان والي جدة نفسه شيخًا للحرم المدني.

وكانت البيعة تتم للأشراف، حيث يفد إلى قصرهم سكان الأقاليم لتقديم واجب السمع والطاعة، والدعاء لهم بطول العمر، كما يثبته المقري في رحلته بقوله:

كقصر مملكة الأشراف من حسن على علي محســـــن من
ذاك الشريف الذي سرت لبيعته أهـــل الأقاليـم من حـد
ودان دان وقاص بالدعـــــاء له بطـــول العمـر يرى خـد[3]

وقد اعتمد نظام الشرافة على التوريث، حيث يتولى ابن الشريف مقاليد الحكم من بعده باعتبارهم الأحق بذلك، لارتباطهم بنسب الرسول(صلى الله عليه وسلم)، يقول المقري:

وأدام الأشراف فيه ملـــــوكا نورهم مشرق على الأمد
بهجة الدهر محسن بن حسين حائز الخصـل سابق المد
وارث المجد عن أب وجـــــد ودّ ليس يثنيـهم عن المجد [4]

(1) اسطنبول: هي أكبر المدن في تركيا وثاني أكبر مدينة في العالم من حيث عدد السكان، حيث يسكنها 13.4 ملايين نسمة, والمعروفة تاريخيًا باسم بيزنطة والقُسْطَنْطِينِيَّة والأسِتانة. انظر: معجم البلدان(87/2).

(2) **سنجاق**: هو أحد التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، ويعني المنطقة أو المقاطعة بالعربية

(3) أبو العباس المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص 79.

(4) نفسه، ص 67.

وفي الجزيرة العربية قدم ابن بطوطة أيضا معلومات قيمة عن أشراف الحجاز في عهده بمن فيهم الحسينيون أصحاب مكة، لما عرف فيهم من احتكاكات بدولة المماليك[1]

- **الحاكم و ولي الأمر:**

اختلفت نظرة الرحالين الجزائريين إلى الحكام وأولي الأمر في منطقة الحرمين الشريفين، واختلفت أساليب عرضهم لتلك الفئة، فمنهم من اكتفى بذكر أسماء من لقيهم أو تعامل معهم، ومنهم من شدته شخصية الحاكم، فراح إمّا يصفه، مادحا، مثنيا، معددا لخصاله، أو يذمه، ذاكرا لمساوئه، وهم قلة.

تجلت صورة الحاكم في نصوص الرحلة الورثيلانية في قيمتين إحداهما إيجابية[2]، والأخرى سلبية، فقد لقي ترحابا ومساعدة من بعضهم، وعرقلة وإساءة من البعض الآخر، فمن الفئة الأولى يروي لنا الورثيلاني أنه اتصل بسلطان مكة الوهابي "مساعد" الذي خلف أخوه السلطان مسعود[3] ، للتوسط بينه وبين أهل الركب الجزائري، الذين أخذت الأعراب جمالهم، فوعده بإرجاعها إليهم، بعد عودته إلى مكة، وكانوا بمنى[4]، وقد وصفه في مجلسه قائلا: " وجدته جالسا على فرش مرتفعة مواجها باب طاق، ينظر الأركاب ويعتبر ومعه أشخاص قليلة ...وقد فرح بي وسرّ سرورا عظيما، لما علم أني صاحب علم وانبسط وجهه انبساطا كاملا".

(1) ابن بطوطة محمد بن عبد الله؛ " غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" تح: محمد بن عبد الرحيم، دار الفكر للطبع،ط1،بيروت، لبنان،2009،ص 144.

(2) سميرة انساعد؛ المرجع السابق، ص103.

(3) **السلطان مسعود** بن مسعود بن شرف بن عبد العزيز بن أحمد سلطان الحجاز، أنظر: الأعلام324

(4) **منى**: (بكسر الميم وفتح النون) هي وادي تحيط به الجبال، تقع في شرق مكة، على الطريق بين مكة وجبل عرفة. وتبعد عن المسجد الحرام نحو 6 كم تقريباً. ويحدها من الشمال الغربي جمرة العقبة، ومن الجنوب الشرقي وادي محسر، ومن الشمال جبل القويس، ومن الجنوب جبل مثير.تعرف بأنها موضع أداء إحدى شعائر الحج إذ يبيت فيها الحجاج كما أنها موقع رمي الجمرات، معجم البلدان(148/6)

وخص أحمد المقري بالذكر شريف مكة " محسن بن الحسين" الذي دعاه لزيارة الحجاز، ورد على مراسلة كتاب ملك المغرب للاستئذان للمقري، وجرى لسان هذا الأخير بالمدح والثناء له[1].

- **الوضع الامني بالبقاع المقدسة:**

من الجدير بالذكر أن المعلومات التي دونها الرّحالة الجزائريون عن الحرمين الشريفين، شكلت مصدرا ذا أهمية في بيان الحالة السياسية السائدة في تلك الأماكن المقدسة، في الفترة العثمانية؛ لاسيما في موسم الحجّ، حيث حكم الأشراف مكة[2] تحت راية الدولة العثمانية التي انحسر وجودها في المدن الساحلية الكبرى، وتأتي في مقدمة هذه الرحلات، رحلة الورثلاني (نزهة الأنظار...) التي نقل صاحبها الحسين الورثلاني ما شاهده في منطقة الحرمين، من كثرة الأذية، وخوف الناس من اللصوص، وانتشار الفساد. والتعدي، من بعض الأشراف وغيرهم، يقول:(وقد زاد الفساد والظلم من الأشراف وغيرهم من أصحابهم، فلا يكادون يرجعون من التعدي بل على أقل شيء يقتلون عليه العبد)[3].

وهذا يدل على استبداد بعض الأشراف، وطغيان أصحاب الجاه والنفوذ، وعدم تحكمهم في إدارة دواليب الحكم، وعدم استقرار إماراتهم، مما سمح بظهور اللصوص وقطاع الطرق، الذين عاثوا في أرض الحرمين فسادا،،) و ينقل على لسان السلطان مساعد قوله:(ما ضيع الأحكام إلا الأشراف، فإنّ أمرهم قد قوي عليّ، وعلى غيري[4] .

لقد قويت شوكة الأشراف، وزاد نفوذهم، وكثرت تدخلاتهم، حتى تجاوزت سلطة السلطان، هذا الأخير الذي أصبح عاجزا أمامهم، وليس له من الصلاحيات والسطوة التي تمكنه من، الوقوف ضدهم

(1) أبو العباس المقري؛ الرحلة، المصدر السابق،، ص 16.

(2) **شريف مكة أو شريف الحجاز**: هو لقب حكام شرافة مكة، حاكم المدينتين المقدستين مكة المكرمة و المدينة المنورة ، يطلق هذا المصطلح على أحفاد حفيد النبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب. انظر: أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني، اسماعيل حقي جارشلي، تح خليل علي مراد الدار العربية للموسوعات، ط1، 2003، ص08.

(3) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص381.

(4) نفسه، ص382.

و تعرض كل من المقري والورثيلاني والمجاجي والمصعبي، إلى وجود ظاهرة السرقة، وقطع الطرق في الصحاري والطرق الخالية من العمارة في أماكن مختلفة، فحدثنا المقري عن خبر صديقه ابن مرشد المكي حول ظاهرة ترصد المرتزقة لسفن الحبوب المتجهة إلى جدة ونهب ما كان محمولا عليها، مما نتج عنه فقر وقلة مؤونة عانى منهما أهل الحجاز في القرن 11هـ.[1]

وقد ذكر المصعبي[2] أنّ فئة لم يفصل في نسبتهم، ونحسبهم من الأعراب، الذين يعيشون على السلب طوال العام، والمكوس والغرامات، التي يفرضونها على الحجيج في مواسم الحج والعمرة، أحاطوا بهم في طريق خال موحش طالبين رشوة، يقول:

فـدارت بنـــا أشيـاخ لرشـــوة طـريقا وحيشـا من أناسيٍ خاليا[3].

أمّا المقري فقد مدح شريف مكة إدريس بن الحسن وابن اخيه، وأشاد بحكمه وهيبته، وبمقامه:

كهف البرية ركـــن المجد ملجـــأه حـــامي حمى الحرم المأمون إدريس

سبط الرســـول منيل السول مظهـر أبنـــاء البتـول مزيـــل المولم ألبيس

مـولى الملـوك الذي يعنـو لهـــيبته وعـــز سلطانه الضـــرغام في الخيس[4]

وهذا يعنى أنّه لا يمكن الحكم على كل الأشراف بالاستبداد، وإساءة استخدام السلطة، فمنهم العدول النزهاء كإدريس بن الحسن الذي يعد استثناء، حسب ما أورده المقري، فهو رغم هيبته وسلطانه إلا أنّه دافع عن الحرمين، وخدم الحجيج، وتميز بالورع والتقوى، وبالعدل والإنصاف، حتى فرض احترامه على الجميع.

كما أشاد أبو العباس المقري[5] بشريف مكة محسن بن الحسين، وبفترة حكمه التي يرى أنها اتصفت بالعدل والانصاف، وبالإحسان وحسن الخلق، في رسالة وجهها إليه يقول فيها: " اللهم يا من جعل

(1) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق ص58.

(2) المصعبي، المصدر السابق، ص82.

(3) نفسه، ص 82.

(4) عبد القادر شرشار؛ المرجع السابق, ص158.

(5) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص78.

من يشاء من عباده محسنا، وحلاه بالعدل والإنصاف، وشاد به للعدل بناء، وحباه أحسن الأوصاف.."[1]

وقال أيضا: " ...جامع أشتات الكمال، فما ترك منها دقيقة، حامي حمى الحجاز بعدله الوريف، حامي آثار المكارم بنظره الشريف، الإمام الذي جعله الله محسنا باسمه"[2]

لا زلت يا محسن الدنيا وسيدها ونبل عدلك يروي كل من وردا

ولا برحت مدى الأيام تحكم في سـرح الحجـاز مـؤتي من وردا[3]

- **معاناة ركب الحجيج الجزائري:**

مما أورده المجاجي أنّ الركب المصري، كان كثير المضايقة للركب الجزائري، يقوم بالضغط عليه ليخرجه من المدينة المنورة، ليأخذ مضاربه في الإقامة بها، يقول:

وأضغطنا المصـري حتى خرجنـا إذ عـلى غـير وجـه لائـق بعجيـلة

وربّي حسيـب من تعدّ ا وجارا في أمـوره على غير طـرق الشـريعة[4]

وهذا التصرف أثبته العياشي في رحلته عندما نزل الركب المصري بجانب الركب المغربي الذي جاء برفقته في المدينة المنورة، قام بالتضييق عليه، يقول:(كانوا تخوفوا ازعاج المصري إياهم، عن الإقامة كما هو الشأن في غالب السنين)[5]

بالرغم من المعلومات التاريخية القيمة، التي قدمتها رحلة المجاجي المقتضبة، إلا أنّها أخلت بالعديد من المعلومات التي من شأنها أن تعطينا لمحة عن الحياة السياسية السائدة في تلك الفترة.

وهذا لم يمنع الرحالة الجزائريين من تصوير مشاعرهم، ووصول أشواقهم إلى أقصاها، وهم على مشارف مكة والمدينة، التي برؤيتها يزول التعب والنصب، حيث يصف الورثلاني هذه اللحظة فيقول:(

(1) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص75-76.

(2) نفسه، ص76.

(3) نفسه، ص76.

(4) المجاجي، المصدر السابق، ص 144.

(5) العياشي؛ المصدر السابق، ج1، ص236.

فدخلنا مكة.. وكأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا الله، بل الأرواح قد تجلى عليها ربّها فخرت صاعقة مغشية عليها، فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكونها)[1]

ويتكرر شوق الورثلاني إلى البلاد المقدسة بعد خروجه من مكة ودخوله المدينة المنورة إذ يقول: (لما أشرفنا على المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، غشينا نور عظيم، وبهاء قوي، لا يخفى على أهل الذوق السليم، والطبع المستقيم...)[2]، ويضيف عند دخوله المسجد النبوي: (دخلنا من باب السلام، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، ولقد تاه القلب في الجلال، والبهاء والكمال، وانبسط علينا النور في الحال، وكنا في التنقل في مراتب التجلي أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد وطاب الحمد والثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب وقمر العز، فتنزه عن سواه...)[3].

أمّا المجاجي فقد بدأ رحلته الحجازية من مكة إلى المدينة المنورة، والتي وصفها بالملحمة المختصرة في معناها، والجلية في أهدافها، قدمت وصفا للطرق والمسالك، وذكرت آبار السقي، وأماكن التزود بالمؤونة، وعددت مزارات المدينة المنورة، واختصرت رحلته ما شاهده في طريقه إلى طيبة بقوله:

نشـــق الفيـافي[4] فدفـــدا بعد فدفـد[5] جبـــالا وأوعـــارا وأرضـــا وطيبـــة

ولم يخف المصعبي مصاعب الطريق، التي لم يسلم منها الانسان والحيوان، فهلك فيها خلق كثير، وأرهقت مسالكها الأجسام، وأتعبت النفوس، لكن كل شيء يهون أمام عظم المقصد، يقول:

إلا إنّ دور الدرب كانت صعيبة على كل ذي بسط جسيما وغانيا

أذابت جزيل جسـم كل ذويـبة وأفنت كـثير خـــلق بعد ومـــاليا

(1) الورثيلاني؛ المصدر السابق ص452.

(2) نفسه، ص529.

(3) نفسه، ص530.

(4) **الفيافي**: تعنى فيف في لسان العرب الفَيْفُ والفَيْفاة المفازة لا ماء فيها الأَخيرة عن ابن جني وبالفَيْفِ استدل سيبويه على أَن أَلف فَيْفاة زائدة وجمع الفَيْف أَفْيافٌ وفُيُوفٌ وجمع الفَيْفَى فَيافٍ الليث الفَيْفُ المفازة التي لا ماء فيها مع الاستواء والسَّعة وإذا أُنِّثَت فهي الفَيْفاة وجمعها الفَيافي والفيفاء الصحراء الملساء . أنظر: معجم المعاني الجامع، ص 259.

(5) **فدفد**: الأرض الواسعة المستوية لا شيء فيها، أنظر: معجم المعاني الجامع, ص 248.

دخلت إلى البيت العتيق بسابع من الشهر ثم طفت سبع طــوافيا[1]

وكانت رغبة المقري شديدة لزيارة بلاد الحجاز فيقول: (إنّ العبد كان يروم اللحاق بتلكم الديار المحروسة، بتوفيق الله من الأغيار، فلم تساعده الأقدار، ولم يحصل من الإقامة إلا على أشجان وأكدار)[2]

ولما اتيحت للمقري فرصة السفر عزم على تحقيق أمنيته بزيارة مكة، وذلك في شهر رمضان عام1027هـ ووصلها في محرم عام 1029هـ، يقول:(ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الإقامة بمصر مدة قليلة إلى المهم الأعظم، والمقصد الأكبر، وهو سر المطالب الجليلة وهو رؤية الحرمين الشريفين المنيفين...)[3]

المبحث الثاني: الحياة الاقتصـــــادية

سنتعرف في هذا المبحث على أهم النشاطات الاقتصادية التي مارسها أهل مكة والمدينة المنورة، من زراعة وصناعة وتجارة، وهل مارسوها جميعها، أم أنّهم اقتصروا على بعضها.

- **تربية الحيوانات:**

من النشاطات التي مارسها أهل مكة والمدينة المنورة تربية الحيوانات[4]، وخاصة الإبل، ذلك أن طبيعتها الجغرافية، وما تميزت به من جبال وصحاري، إضافة إلى قسوة مناخها قد دفعت بأهل الحرمين إلى ترك الزراعة، التي أدركوا أنّه من الصعب ممارستها في المرتفعات والوديان والشعاب، لذلك استعملوها كمناطق رعي لحيواناتهم، فهي رفيقة العربي بصفة عامة، فما بالك بالمكي الذي يكثر من التنقل للتجارة لما تقتضيه هذه الحرفة من تحمل مشاق التنقل والسفر، لذا اتخذ منها رفيقا لا يفارقه طول حياته، يشرب لبنها بدلا من الماء الذي حرم نفسه منه ليوفره لماشيته، ويتلذذ بأطايب لحمها، ويصنع من جلدها لباسا يقيه حرّ الصيف، وبرد الشتاء، بالإضافة لتربية الخيل والماعز والأغنام.

(1) عبد القادر شرشار ؛ المرجع السابق، ص78.

(2) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص 10.

(3) نفسه ص39-44.

(4) بوشارب سلوى؛ مكة وعلاقاتها بالحواضر الحجازية والدول المجاورة, مذكرة ماجستير, جامعة منتوري قسنطينة, 2008/2007 ، ص 68.

– الموارد المائية في مكة والمدينة المنورة:

نظرا لقسوة المناخ بمكة والمدينة، وما يمتاز به من ندرة الأمطار وتذبذبها فقد كان الحصول على الماء أمرا صعبا، وأمام الحاجة الملحة لكميات كبيرة من المياه، مع تزايد وفود الحجيج إليها أيام موسم، حفرت العديد من الآبار منها ما هو مالح ماؤها ومنها ما هو عذب، وقد مرّ بها الرحالة الجزائريون وذكروها في رحلاتهم ومنها:

أ- عين زرقاء: يقول المصعبي عنها:

ألا إنّ بالبـــــدر الكريم لبندرا وعينا تسمى عين زرقـــاء شافيا[1]

ب- أبيار دفلة: وهي بين الجحفة ومكة ، يقول المصعبي:

فجزنا على عسفان أبيـــار دفلة إلى الـــواد فالتنعيم هذا مراديا[2]

ج- أما أشهر هذه الآبار جميعا هي بئر زمزم التي حفرها عبد المطلب بن هاشم، يقول المصعبي:

سعيت بعيد الشرب من بير زمزم فأحللت بعـد أن قضيت ثفاتيا[3]

د- خليص: وهي موضع بين مكة والمدينة المنورة، يقول الورثيلاني:" ..إلى أن وصلنا إلى الساقية الكبيرة التي تخرج من خليص.."، ويخبرنا في موضع آخر عن معطن خليص قائلا :" فيه عين جارية قوية، ساقيتها مبنية محكمة البناء، لاتجد منها بناء، وفيها مزارع وفيها بركة عظيمة عميقة"، يعطب فيها من لا يحسن السباحة".

هـ- أبيار الأمير علي: بها آبار تقع بذي حليفة، وهو الموضع الذي أحرم منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول المجاجي:

نزلنا بأبيـــار الأمير علي من تسمى بسيف الله في خير بقعة[4]

(1) المصعبي، المصدر السابق، ا ص79.

(2) نفسه، ص78.

(3)نفسه، ص78.

(4) المجاجي، المصدر السابق، ص

- التجـــارة:

لقد نالت مكة والمدينة المنورة مكانة مميزة بفضل موقعهما الجغرافي الممتاز، ووجود بيت الله والمسجد النبوي فيهما، في نفوس المسلمين الذين جعلوا منها مركز عبور لتجارتهم وملتقى لقوافلهم التجارية القادمة من كل حدب وصوب، ويبدو من نصوص الرحلات التي درسناها أنّ أهل المدينتين مارسوا التجارة، وتحكموا في المبادلات التجارية[1].

- أسوق مكة والمدينة المنورة:

نظرا للتنظيمات التي قام بها حكام الحجاز، فقد ازدهرت الأوضاع الاقتصادية داخليا وخارجيا، ونظمت الأسواق التي يعرض فيها أهل الحرمين الشريفين بعض منتوجاتهم المحلية، وما حملته قوافلهم من مختلف الأصقاع، ومن أهم ما ذكره الرحالة الجزائريون عن هذه الأسواق ما يلي:

وصف الورثيلاني الأسواق العامرة في أرض الحجاز، التي يتزاحم الحجاج على الانفاق فيها، وشراء البضائع منها رجاء البركة، ويذكر:" التجار كانوا يقولون لهم إنّ من اشترى شيئا، وجعله في تجارته وجد بركة"[2]ويروى أن بركة الرسول(صلى الله عليه وسلم) ظهرت في أهل بدر، فيقول:"...فأسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها، وانقطاعها عن البلاد"[3]، واعتبر قرية "ينبع" روضة من رياض الله، تصلح للمنقطعين والغرباء والمساكين: «لأنها مرسى وفيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، وتقضى فيها الحاجات وفيها غالب الحبوب والثمرات وكذا الحِربز أعني الدلا ع، وجميع الأقوات والمشتهيات"[4]

- أما المصعبي فكان دقيق الملاحظة في وصف الأسعار الملتهبة بسوق من أسواق مكة وهي عديدة، يقول:

(1) بوشارب سلوى؛ المرجع السابق , ص75.

(2) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص338.

(3) نفسه، ص251 .

(4) نفسه، ص347 .

فلما قضيت من منى كل حاجة قدمت إلى سوق بمكة حاميـــا[1]

كما أن هذه الأسواق تحتوي على كل ما يتمناه الحاج من ملابس وأطعمة، وعبيد، وهدايا ثمينة يقول الورثيلاني:" ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها ، قصور عالية، وأسواق حافلة، وجنود مجندة، وملابس فاخرة، وأطعمة شهية، ومراكب هنية، وبضائع غير معدودة، ومتاجر ثمينة"[2]وكانت هذه الأسواق تستقطب الحجاج، الذين يتوافدون عليها بعد الانتهاء من أداء مناسك الحج، لاقتناء بعض السلع .

وتعجب الورثيلاني من امتلاء الأسواق بالناس والبضائع فقال:" ثم في الغد عمرت الأسواق، وكثرت الأنفاق، وأخرجت البضائع ذوات الأثمان، وصنوف التجارات، وتزاحم الناس على الشراء، رجاء بركة ذلك المكان"[3]

بالإضافة إلى أن كثرة السلع المتواجدة في هذه الأسواق وتنوعها تفوق الدول الأخرى يقول الورثيلاني:" وفي هذا البلد أسواق حافلة بحضرها الناس من أطراف نجد ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته، بحيث يخيل لنا أنا لم نر مثل ذلك في الأمصار العظيمة"[4].

ومن المنتوجات التي اشتهرت بها المدينة المنورة الفواكه، التي كانت في غاية الجودة كما وصفها الورثيلاني، خصوص عنبها ورطبها، وأما الخضر فأكثرها وجودا الجزر والبازلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت والخضر البرية، ليس فيها إلا الخبيز، ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم إلا أضر به ما لم يكن حديث عهد بالبلد، فإذا طالت إقامته في البلد تطبع بطبعهم[5].

(1) المصعبي؛ المصدر السابق، ص 79.
(2) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص425.
(3) نفسه، ص338.
(4) نفسه، ص254.
(5) نفسه، ص 74.

كما أشار إلى عادتهم في التعامل، حيث يسمون الأربعين مايديا[1] صرفا، فيقولون عشرة أصرف، وعشرون صرفا، يعنون كل أربعين قيراطا من الفضة المسكوكة صرفا[2].

وقد تعود أهل المدينة شراء اللبن والجبن والسمن والغنم من البرغازين[3] وهم قوم من الأعراب الساكنين بالمدينة وضواحيها، الذين يجلبونها معهم إلى أسواق المدينة، ويساومونهم عليها بربح قليل) أما الحقيقة التاريخية التي نستنتجها من خلال دراستنا لهذه الأسواق، أن تجارة مكة قد ارتبطت بموسم الحج والأشهر الحرم، لما تتمتع به هذه الأخيرة من أمن يساعد التجار على البيع والشراء في سلام، كما أن تجارة قريش لم تكن ملكا لأفراد، بل كانت قوافلها تحمل أموالا لجميع البطون فقيرهم وغنيهم، كل حسب قدرته.

ولم تكن التجارة مقتصرة على الرجال فقط، فنساء المدينة في تلك الفترة أيضا اشتهرن بمزاولة نشاط البيع والشراء، وقد أعاب بعض الرحالة ذلك ، واعتبروه نقيصة في حقهن، ومنهم الورثيلاني الذي أشار إلى أنّ "أهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة وهو أنّه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها، ولهن في ذلك الوقت على الرجال أتاوة، يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق وطيب وشبيهه[4].

كما ازدهرت تجارة الرقيق[5]، الذين يباعون في الحجاز، والذين ينتمون إلى قوميتين هما: الزنوج السود (من السودان) ويعتبرون أفضل العمال، ويسعى الناس لامتلاكهم، أمّا العبيد الأحباش فلا يوجد في مكة والمدينة بيت لا يضم عبدا أو جارية من الذين يقومون بالأعمال المنزلية، وتعتمد القوافل على العبيد في الأعمال الشاقة، يشير الورثيلاني أنّه لا يتولى خدمة الحجرة الشريفة إلا عبيد أغوات موقوفون على ذلك.

(1) **مايديا:** اسم عملة الحجاز، كقولنا للدينار من الذهب شريفيا وسلطانيا، انظر: الورثيلاني، المصدر السابق، ص75.
(2) نفسه، ص71.
(3) نفسه، ص 72.
(4) نفسه، ص 471.
(5) بوشارب سلوى؛ المرجع السابق، ص63.

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية:

قدمت نصوص الرحلة الجزائرية معلومات شتى عن ملامح الحياة العامة لشعوب الحرمين الشريفين، خلال العهد العثماني، وكانت مصادره مختلفة من مشاهدة عينية، وسماع من العلماء والناس، وقراءة كتب الرحلات أو التاريخ.

يقوم النظام الاجتماعي في بلاد الحرمين الشريفين أساسا على القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية، غير أنّ الأسرة هي الأساس لأنّ القبيلة ماهي إلاّ مجموعة من الأسر والعشائر، تربطها أواصر النسب لذلك فأبناء هذه المنطقة ينظرون إلى بعضهم البعض كأبناء دم واحد يربطهم الدين واللغة، بالإضافة إلى المصالح المشتركة. وسنحاول في هذا المبحث أن نتعرف على الأسرة المكية والمدنية، من حيث تكوينها وعاداتها وتقاليدها.

- **الـــــزواج:**

لقد كان الرجل المكي والمدني كغيره من العرب كثير الاهتمام باختيار زوجته من ذوات الحسب والنسب، إيمانا منه بأنّ الزوجة سكنه ومتاعه وشريكته، لذلك بذل جهده في اختيارها.

وكانت المرأة في مكة والمدينة تستشار في زواجها ولا تتزوج إلا برضاها، يقول الورثيلاني أنّه كان مع جماعة فإذا بامرأة فقيرة تشكو الإذاية "فقال لها الجالس مع الشيخ: هل ترضين بالنكاح، فقالت : وكيف لا أرضى فأنا مقطوعة الأسباب، لا مسند لي إلا الله تعالى"[1] فعين لها صداق، وأسهم بعض الحاضرين في نفقات هذا الزواج، وقامت بالتحضيرات اللازمة لذلك .

وجرت العادة أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام، فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب، وبإزاء الخطيب المتعاقدان، فيشرع في الخطبة، ثم يؤتى بأطباق الرياحين، وأطباق من اللوز والسكر، ويفرق على الحاضرين، ويقوم المنشد ينشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم) فيفترق المجلس[2]

(1) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص 361.
(2) نفسه، 589.

- **إرضاع الصبيان في البادية:**

ألفت قريش أخذ صبيانها للإرضاع في البادية، وكانت هذه العادة سائدة حتى قبل الإسلام ولها جذور من العهد النبوي، ويرجع المقري أسباب انتشار هذه العادة زمن الرحلة : إما لأنّ الأم ذات حسب ونسب وتتنزه عن الإرضاع، لأنّه في اعتقادها انقاص من قيمتها ومكانتها، أو لأنها منشغلة بزوجها وبيتها ولا وقت لديها لطفلها، أو لتبعد عنها مولودها ليتسنى لها الأنجاب، وربما لتستعيد صحتها وعافيتها، إن كانت مريضة، وهذه الأسباب أجملها المقري في رحلته، بقول:

كانت قريش تخرج صبيانها للبدو في الارضاع خذ تبيانا
لذلك خير الرسل طه رضعا حليمة والضر عنها وضـــعا
وفيه أســـــرار لمن تدبرا وبعضهم عنها بسبـــع عبرا
إمّا تنزها عن الارضـــاع لكون قدر الأم ذا ارتفــاع
أو لانشغالها بحق الزوج أو لغربة كي ينجبـــوا إذا نأوا
أو لكمـــــال حسن أمه إذا تركت الارضاع إثر الأذى[1]

ويذكر الورثيلاني إما من الملاحظة الميدانية أو نقلا عن رحلات سابقة، الكثير من عادات أهل المدينة على النحو الآتي:

أ- أن يجتمع الناس ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد، فتأتي جماعة من المنشدين، فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، وتطريب وتقسيم، والناس محدقون.

ب- أن يكنس في يوم الجمعة المسجد النبوي كله، ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب، فتعلق على أبواب المسجد، ويؤتى برايتين سوداويين من ديباج مخوص أيضا فيركزان على يمين المنبر وشماله.

ج- التهنئة بحلول كل شهر على خلاف المعتاد في المغرب، تكون في الأعياد وما شاكلها.

(1) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص 106 .

د- الصلاة مباشرة تقريبا بعد الآذان، إذ ليس بين الآذان والصلاة قدر يسع التأهب..

هـ- الصلاة على الجنائز بإدخال الجنازة إلى الحرم الشريف، فيصلى عليها في المسجد ثم يمر بها أمام الوجه الشريف، ويوقف بها وقفه[1]

- **مظاهر الفرح والابتهاج:**

لقد أسهب الرحالة الجزائريين ومنهم الورثيلاني، في وصف سكان الحجاز وأفراحهم وأعراسهم فحين دخل على مكة واقترب من البيت الحرام وأشرف على أنوار الكعبة، فرأى أستارها مدلاة يقول: " وتجلت لنا الكعبة المشرفة، ورأينا جماعة الناس بها مطيفة، فيا لذلك المنظر الذي ملأ القلوب مهابة، والعيون جلالة، وطفا بالبيت سبع طوفات للقدوم، وشربنا ماء زمزم، ودعونا الأدعية المأثورة، فعادونا بالحجر بالاستلام، ناوين سنة السعي، فخرجنا لقضاء شعيرة السعي"[2].

ومن المشاهد التي سجلها بمنى مظاهر الفرح والابتهاج، "كإيقاد أهل مصر والشام المصابيح، واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار، وإكثار الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو، نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار"[3].

ويروي أنّه ذبح بمنى يومين من الغنم، ما أكسب الغني والفقير، وكفى البصير والضرير، وأغنى الوارد والمستوطن، فامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم.

- **القيم الأخلاقية عند أهل الحرمين:**

أولا: الكرم: لقد كان الكرم من أسمى عادات المكيين والمدنيين التي فطروا عليها، حتى أنه صار شرعتهم الاجتماعية التي يتبارون في ساحتها، فكانوا يكرمون الضيف، ويحسنون استقبال زوار البيت.

ثانيا: الشجاعة: إن قوة الشكيمة كانت أيضا من الخلال التي ميزت أهل بيت الله وحرمه.

(1) الورثيلاني؛ "المصدر السابق، ص 585-589.

(2) نفسه، ص334.

(3) نفسه، ص 339.

ورغم هذا فقد وجدت بعض المظاهر السلبية، ووقعت بعض المناكر والرذائل، اشتكى منها الرحالة واستنكروها، ومنها ما استنكره الورثيلاني، من أخلاق عرب صبح فقال:" ...مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم، أي لأهل بدر"[1].

ثالثا: قبح الصفات والعادات: ترك الرحالة الجزائريون أحكاما عامة، وأخبارا عن صفات وأخلاق لم تعجبهم عند أهل زمانهم، كالغيرة والحسد، والكره والظلم، والغش والكذب والوشاية والسرقة، كسطو ونهب بعض الأعراب لقافلة الركب الجزائري التي أوردها الورثيلاني في رحلته .

5 – اللباس : لبست النساء ضروبا مختلفة من الثياب مما حملته القوافل القادمة من الشام واليمن والعراق والمغرب، وذلك حسب الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، فمنهم من ارتدت النطاق، وهو ثوب تشده المرأة إلى وسطها وترخي نصفه الأعلى، ومنهن من ارتدت الريطة وهي ملاءة ذات لفق واحد أي شقة واحدة، والمرط وهي ملاءة ذات شقين، إضافة إلى أغطية الرأس كالخمار والقناع والبرقع أمّا لباس الاحرام فيذكر الورثيلاني أنّ معظم الناس لا يعرفون أحكامه وفرائضه، فأخذ هو وبعض أهل العلم يطوفون بالناس، ويعلمونهم الفرائض والسنن، حسب السنة النبوية، ويقول:" وأزلنا ثياب الحياة، ولبسنا ثياب الممات، وحنطناها كالكفن،فأيقضنا العيون والجفن، فوجهنا النفوس، لعلام الغيوب، وما مسنا في ذلك من لغوب، وأزلنا كذلك المخيط والمحيط[2]

ومن عاداتهم كما يشير الورثيلاني "إذا قرب زمن انقضاء الحر، وأقبلت هوادي زمن البرد، وظهرت البرودة في الهواء صباحا ومساء أخذوا يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة، التي تلبس في أيام البرد الشديد"[3]

– أما ما اعتادت نسائهم على طبخه وإعداده من مختلف الأطعمة، فقد اشتهرن بصنع الثريد وأطباق الرياحين، وأطباق من اللوز والسكر.

(1)الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص251.

(2) نفسه، ص81.

(3) نفسه، ص85.

لقد أدى إهمال الأشراف، وعدم مبالاتهم، وتقصيرهم في أداء واجبهم اتجاه الحرمين الشريفين، إلى تركهما عرضة للأوساخ، وانجاس الأركاب التي تمر بهما حتى صارا كمرحاض عمومي، حيث اشتكى المصعبي وانزعج من هذه الظاهرة غير المشرفة، وهذه الملاحظة الدقيقة مما يحسب للشيخ والتي غفل عنها غيره[1].

المبحث الرابع: الحياة الثقافيـــة والدينيـــة:

يحتل الوصف والسرد جانبا مهما في نصوص الرحلات الجزائرية، فهو يخدم موضوعاتها، ويجعل من الرحالة السارد يتجول في الزمان والمكان، منفعلا متفاعلا مع المشاهد والمواقف والشخصيات مؤثرا متأثرا بما يسمعه ويراه، متشبعا بقيم نبيلة، من صدق وتواضع وتسامح واحترام الغير...ميالا للحديث عن الأمور الدينية، كمدح العلماء والأولياء، واسترجاع الأحداث المشرفة، كتذكر سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومآثر صحابته الأبرار، متمسكا بعروبته وهويته، مدافعا عنها، متفاخرا بأمجادها، متأسفا لما آلت إليه أحوال الأمة.

لقد أخذ تصوير الحياة الدينية والثقافية في الحرمين الشريفين نصيبا من رحلات الجزائريين، كون أغلب الرحلات أنجزت لغرض الحج، أو لغرض علمي ثقافي.

وقد حاول الرحالة الجزائري التواصل مع الآخرين والتعامل معهم، لاكتشاف هويتهم، وفهم طباعهم، وتبرير سلوكهم، واهتموا بوصف الشخصيات منفردة، كما اعتنوا بتصوير حياة الجماعة[2]

لقد كان الرحالة الجزائريون شديدي التعلق بالبقاع المقدسة، متلهفين لرؤيتها ومجاورتها، استجابة لنداء الحق، وأداء فريضة الحج، في جو مهيب، وفي فرحة عارمة يدخلون مكة والمدينة، في ازدحام كبير، فيزول العناء والتعب، يقول الورثيلاني:" فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس فرحة، أزالت عن الجفون، كل قرحة، فدخلنا في زحمة عظيمة..[3]

(1) المصعبي، المصدر السابق، ص

(2) سميرة انساعد؛ "المرجع السابق، ص103.

(3) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص311 .

ومما ذكره أنّه كان يساعد الناس على الطواف، ويعلمهم كيفية ذلك، فأثار ذلك بعض أهل مكة، الذين أمروه بالطواف لنفسه، وترك الأمر لهم لأنّه مصدر رزقهم، يقول:" فطفت بهم طوافا كاملا بشروطه، أعلمهم إياه، ولما رأى أهل مكة فعلي ، تغيروا، وقالوا ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم فقالوا : طف لنفسك، واترك الناس"[1] .

كما كان موسم الحج يعجّ بالناس تعلوا أصواتهم بالذكر والدعاء، كدعاء المجاجي:

هناك طلبت الله يغفر ذنبنا ويختم لنا بالخير يوم النـــدامة[2]

ويقول الورثيلاني:

وما زال وفد الله يقصـــد مكة إلى أن بدا البيت العتيق ركنته

فضجت وفود الله بالذكر والدعاء وكبرت الحجـــاج حين رأيناه

وتحدث عن أمير الحج المصري وأتباعه، الذين يتكفلون بتغيير كسوة الكعبة، وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنعون الناس من الدخول، إلا أنهم يتجمعون، فإن منعوا من جانب دخلوا من جانب آخر، مع ما يحصل من سوء أدب، ومن ضرب وشتم[3].

- **انتشار الفكر الصوفي:**

إذا تتبعنا الرحلات الجزائرية الحجازية، ومعالمها الثقافية، نجد التأثر الروحي والفكر الصوفي، وحبّ أهله ورواده، فكلما سمعوا بوجودهم في موضع إلا هبوا إليه سواء كان أصحابه أحياء أو أموات، وهذا ما نجده في أهم المزارات بالمدينة المنورة، كزيارة الحرم النبوي، وسيد الخلق عليه الصلاة والسلام وآل البيت والصحابة الكرام بالبقيع وأحد، ومن العبارات الصوفية المتكررة (تبركنا – دعونا عند المقام– دعونا بجاهه...)ويظهر ذلك جليا في رحلة الورثيلاني والمقري

(1) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص315.

(2) المجاجي؛ المصدر السابق، ص142

(3) الوررثيلاني؛ المصدر السابق، ص332.

فظاهرة التبرك بالمقام أو الدعاء عنده، كانت منتشرة، كما انتشرت كتب المتصوفة ككتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار، للشيخ الصوفي أبي عبد الله الجزولي[1].

أما الإشارات الدينية في رحلة المجاجي فهي جلية، تعكس الطابع الصوفي لصاحب الرحلة، وهذا من خلال مدحه المتوالي لجملة من علماء الصوفية، إلى جانب بقية العلماء؛ سواء الذين رافقهم في ركب الحج أو التقى بهم في طريقه، حيث يورد لهم بعض مميزاتهم العلمية كعلم القراءات عند أبي سلطان، والفقه عند الشيخ سحنون، عاكسةً خلفها ميوله ومذهبه لبني جلدته من المغاربة (المذهب المالكي) بما تضمنته معاني تلك الأبيات من المدح والرثاء وحيازة النسب والشرف، والهجاء.

- **ظاهرة التشيّع:**

رغم أنّ أهل الحرمين الشريفين معظمهم من أهل السنة، إلا أن ظاهرة التشيع عند البعض بدأت تطفو على السطح، وهو مذهب الرافضة، كما نقله الورثلاني، والعهدة على الراوي، يقول أحد المتشيعين:

إنّ في الجنـــــــة نهـــرا من لبن لعلي وحسيـــــن والحســـــن[2]

وربما يعود ذلك لجغرافية مكة و والمدينة وقساوتهما، إضافة إلى موقعهما الذي مكنهما من الاتصال بالأمم

المجاورة لها، الأمر الذي أثر على تكوين معتقدات المكيين والمدنيين وانتماءاتهم الدينية.

(1) **أبو عبد الله الجزولي**، عالم دين سني على طريقة الأشاعرة، وفقيه مالكي، وصوفي على طريقة الشاذلية. من ذرية إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب. صاحب الكتاب المشهور دلائل الخيرات في الصلاة على النبي. الكتاب يتفرق في سبع أجزاء لكل يوم أسبوع. هاجر أجداده من مدينة فاس إلى جزولة في سهلالة. عاش في القرن التاسع الهجري، وتوفي مسموماً في صلاة الصبح في 16 ربيع الأول عام 870 هـ ودفن بوسط المسجد الذي كان قد أسسه, انظر: الزركلي، خير الدين , الأعلام – ج6 ,دار العلم للملايين, 2002, ص 151.

(2) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص379.

- **التعلـــــيم:**

التفت المقري إلى مظاهر الحياة العلمية فوصفها وصفا ينم عن خبرة وثقافة عاليين، لم نلمسهما عند من سبقه من الرحالين[1]- وما ينبغي التنويه إليه أنّ الحياة العلمية بمنطقة الحرمين استفادت كثيرا من هجرة العلماء المسلمين إليها، فقد حمل هؤلاء المهاجرون علومهم وآدابهم إلى مدنها، وقاموا بتنظيم حلقات العلم والدروس، داخل المساجد والمدارس القرآنية، وقد كانت الدراسة في المكاتب(المدارس) تغلق أبوابها يومي الثلاثاء والجمعة، خلاف الحال في المغرب، حيث التعطيل يومي الخميس والجمعة[2].

ويعتبر الورثيلاني علم الكلام أمر مستحب كأداة عقلية مكملة للأدلة النقلية، كما ظهرت في رحلته العديد من المواقف الفلسفية الممتزجة مع الأسس الدينية، رغم أنه لم يذكرها بشكل صريح كإجابته عن سؤال ذو طبيعة فلسفية بالاستناد إلى قاعدة أنّ المزية لا تقتضي الأفضلية، والاستدلال عليها[3] .

- **التعريف بالأعلام:**

تتيح الأسفار والرحلات التواصل العلمي والاجتماعي بين أهل الجزائر وبقية المجتمعات الشرقية وخاصة الأماكن التي تمتد فيها إقامة الحجاج، فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاجتماعي والعلمي، ويكون لأهل هذه المناطق أيضا مجال أكثر لمعرفة من بركب الحج المار بهم من الشخصيات التي تستحق التعرف إليها، والاستفادة منها، إما لوضعها العلمي المتميز وإما لصلاحها فيتبرك بها ويغتنم دعاؤها.

وتتنوع واجهة التواصل العلمي بين الجزائر وبين المشرق إما بالأخذ من علماء الجزائر الوافدين وهو أمر نادر، وإما بالبحث عن علماء المشرق والأخذ عنهم، إما بملازمتهم المجالس العلمية، التي يقيمونها، والاستفادة منهم برواية أو إجازة، وإما لمجرد بعض القراءات السريعة التي تشمل بعض المصنفات

(1)عبد القادر شرشار, المرجع السابق, ص70.

(2) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص 585.

(3)نفسه، ص381.

الحديثة، أو قراءة بعض الأحاديث والتعرف على ما يمثله إنتاج بعض العلماء في التأليف واستصحاب بعض المؤلفات عند العودة.

اتصل الرحالة الجزائريون بالعلماء أكثر من السياسيين، بحسب توجههم، وأغراض رحلتهم وظروفها، التي تكون إما لطلب العلم أو أداء لفريضة الحج أو حضور ندوة ثقافية، ولا يمكن حصر كل أسماء العلماء الواردة في الرحلات الجزائرية فهي كثيرة جدا.

التقى أحمد المقري بشخصيات كثيرة ذات صلة بالعلم والسياسة، من مفتتين وقضاة، وخطباء وفقهاء وأدباء، ومنهم: يوسف الكريمي، ومحمد بن أحمد المكلاتي ، ومحسن بن الحسين شريف مكة و إدريس بن الحسين، وسعيد قدورة....، وأثنى على خصالهم نثرا وشعرا، وكان أشهر أعلامه، مفتي الحرم الشريف عبد الرحمن بن مرشد المكي، الذي كان مقربا، ملازما لرفقته، تبادل معه الرسائل والتهاني والتعازي، ونقل عنه بعضا من الأخبار الشخصية والعامة للحجاز[1].

وتكثر الشخصيات العلمية والسياسية في الرحلة الورثيلانية، بسبب حرص الكاتب على التعريف بأهل الخير والفضل تبركا بهم، واعترافا بجميلهم، واقتداء بهم:" إنما نذكر من ذكر من الاخوان والمحبين وبيان أوصافهم، ليتحقق السامع بأحوالهم، ويتصف بأوصافهم، والأقل أن تحضر عندهم بركاتهم"[2]

وبما أن الورثيلاني لم يدم بقاؤه طويلا بالمدينة المنورة، استجابة لرغبة أهل بلدته، الملحين عليه بالعودة معهم، فإنه لم يذكر في هذه المرحلة إلا خطيب يوم عرفة الذي رغم الزحام، استطاع الرحالة الوصول إليه، وتقبيل ركبته، ووصفه فقال:" رجل شريف كبير السن، وكلامه عليه حلاوة وطلاوة، يعلوه نور وهو أجمل خلق الله قدا وحدا، بياضه مشرب بحمرة، وسبيغ الوجه يتلألأ نورا، قد شاب فلم تبق منه شعرة سوداء والله أعلم" [3]

(1) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص17.

(2) الورثيلاني، المصدر السابق،، ص141.

(3) نفسه، ص413.

. ويمكن أن نلاحظ انعدام الترتيب في العناصر التكوينية للموصوف، فابتدأ بما هو معنوي لينتقل إلى المادي، وهذا راجع إلى طبيعة الوصف التقليدي عند العرب، الذي يولي أهمية كبيرة للأخلاق

وقد أجمل المجاجي أسماء الأعلام المذكورين في رحلته، وأغلبهم متصوفة، في بيت مستقل في قصيدته:

وفي ركبنا من الأفاضـــل جميلة من العلماء العامـــــــلين الأجلة. .

أما بقية الأعلام فهم متناثرين بين طيات الأبيات ومنهم:

- أبو حسون علي: وقد خصه المجاجي بسبعة عشر بيتا، كلها مدح وتعداد مناقب.

أبو الحسن عليا إذ قل مثله فيما قد مضى والآتي من كل جهة [1]

- عبد القادر الجيلالي: خصه بثمانية أبيات، يمدحه فيها بعلو قدره في علم التصوف والزهد والتقوى

وإن لم تكن هذه الرحلة قد ترجمت لهؤلاء العلماء والأعلام، وهم من الصفوة، والجديرين بالذكر إلا أنها أعطت ملامح تلك الشخصيات الهامة وإن كانت لا تصلح لأن تكون مصدرا لتراجم العلماء فإنها شهادة حية عنهم.

- **الإجازات:**

وزخرت رحلات الجزائريين نحو المشرق لاداء فريضة الحج والرحلات نحو والمغرب بعديد الإجازات العلمية، ونجد عديد الإجازات لأحمد المقري بمصر من عدة مشايخ[2]، والإجازة[3] هي طلب طالب العلم من أستاذه، وشيخه أن يجيزه بمسموعاته ومروياته، التي حصل عليها، وأن يأذن له بالنقل عنه، فالطالب مجازٌ له، والأستاذ مجيزٌ، ولا تمنح الإجازة إلا لماهر في. صنعته، أو متقن لمعارفه، وينبغي للمجيز (أو من أنابه) أن يكتب الإجازة، أو يصدق على صحتها، أو يتلفظ بها «أمام شهود» أو

(1) المجاجي، المصدر السابق، ص 130.

(2) فوزية لزغم : الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، دار سنجاق الدين للكتاب، س2009،ص: 275

(3) الإجازة لغة مشتقة من الفعل جوّزَ، ويقال جزت الموضع أي سرت فيه، وأجزته أي خلفته وقطعته، أما اصطلاحا: فهي إذنً من شيخ لطالب علم او لعالم آخر في رواية الحديث الشريف، او الفقه او التاريخ او أي علم من العلوم، أو هي اذن بتولي منصب كالفتوى والتدريس وغيره. انظر فوزية لزغم : المرجع السابق، ص15، 18.

يقتصر على الكتابة مع قصد الإجازة وقد تضمنت رحلة المقري إجازاته النظمية والنثرية، التي أجاز بها طلبته وعلماء عصره، وقد فاقت العشرين إجازة، ومن بين هؤلاء العلماء والطلبة: محمود بن أحمد العمادي، ومحمد بن قاسم بن القاضي[1] وأحمد بن العجمي. وكذلك أجاز ابن المرشدي حنيف الدين، خطيب مكة آنذاك، وهو تاج العارفين المكي[2]

وقد أجاز الرحالة الجزائري ومفتي الجزائر في عصره أحمد بن عمار الشيخ احمد خليل المرادي الشامي فقد قال في نص الإجازة " هذا وقد أجزت السيد المستجيز المجاز، ورجل الحقيقة لا المجاز، مفتي الشام، والغيث الذي تستمطر بروقه وتشام، السيد محمد خليل المذكور أعلاه، دام فضله وعلاه راجيا منه ان لا ينساني من دعواته، خصوصا في أوقات توجهاته وصلواته، والله عز وجل المأمول أن يحييني وإياه حياة طيبة وان يغدق علينا أجمعين من سحائب رحمته الغيوث الصيبة وان يختم لي وله بالحسنى ، قال ذلك وكتبه غبار النعال، الراجي فتح المتعال، عريق الأوزار اقل الخلائق احمد بن عمار، لطف الله به، بتاريخ أواخر ذي الحجة الحرام من شهور سنة 1205، خمس ومائتين وألف، والسلام[3].

وذكر أبو راس الناصري الجزائري أيضا مجموعة من المشايخ الذين درس عليهم في رحلته المشرقية لأداء فريضة الحج فنجد ذكر لشيخه "اعمارة العلاف"، والشيخ "عبد الرحمان التادلي المنشاء المكي الدار"، والشيخ "عبد الملك الشامي"[4].

وكذلك الحال مع أبي سالم العياشي خلال رحلته الحجازية" ماء الموائد" فيمكن من خلالها إبراز التواصل القائم بين مناطق العالم الإسلامي، ورحلة ابن أبي المحلى الذي أشار إلى المناخ الثقافي

(1) المجاجي، المصدر السابق، ص 130

(2) المقري؛ الرحلة، المصدر السابق، ص 16

(3) أبو القاسم سعد الله؛ تجارب في الأدب والرحلة، د.ط: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر العاصمة، الجزائر، 1983، ص: 67.

(4) أبو راس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، د.س.، **ص: 62، 63، 64.**

بالمشرق[1]، ولأبي سالم العياشي تأليف يعرف إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، وهو كتاب جمع فيه الإجازات النصية التي جمعها من رحلاته المشرقية وممن إستجازهم من علماء مكة والمدينة والقدس وغرة ومصر ، وألف هدا الكتاب كما قال انه بعد رحلته الأولى والثانية ولقاءه بعلماء كثيرين هناك وحمل عنهم علوما كثيرة من مسموع ومجاز، هدا وقد تحصل العياشي في رحلاته الحجازية على خمسة عشرة إجازة وهي مجموعة في كتابه هدا وجمعها عن سبق إصرار حيث قال " فلما اجتمع عندي من إجازات المشايخ على الاستدعاءات المذكورات ما رأيته يمكن أن يكون تأليفا بادرت إلى جمع دلك في هذه الأوراق خشية الافتراق"[2].

كما كانت مكة ومدينة بمثابة مكتبة جامعة للمصنفات والكتب وانتشارها العلمية منها والدينية وتداولها بين المشرق والمغرب، حيث حرص الملوك والأمراء والقواد والأدباء والنساخ وأهل الوقف على تزويد مكتبات الحرمين الشريفين وغيرهما من المكتبات بالكتب المختلفة خاصة كتب الحديث الشريف وكتب الفقه والشروح والحواشي وكتب التاريخ والتصوف، كما تكفل حجاج الركب بحمل الكتب والمؤلفات التي صادفوها في طريقهم إلى وجهتهم المقدسة او وقفوا عليها في مكتبات الحرمين الشريفين إلى بلدانهم عن طريق الحجاج المسافرين في الأركاب المختلفة[3].

المبحث الخامس: الحياة العمـــرانية:

إنّ الفن المعماري في أي مكان ينطلق من البيئة والمناخ والتقاليدِ والقيم الدينية والاجتماعية وحاجاتِ الناس، والنظرية المعمارية هي تحليلٌ لهذا الواقع المعماري، تَلحَقُه ولا تسبقُه، وهذا الواقع ينطبق على مكة المكرمة والمدينة المنورة، التي كانت لها مِيزة خاصة، وقد وصف بعض الرحالة الجزائريون مظاهر

(1) عبد المجيد القدوري؛ " ابن أبي المحلى الفقيه الثائر ورحلته الاصليت الخريت،د ط، منشورات، عكاظ، الرباط، المغرب، د س،ص93.

(**2**) ابو سالم العياشي؛ إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تح؛ محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، ط1ن بيروت، لبنان، 1999، ص: 64، 65.

(**3**) سليمان القرشي، دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، مجلة رحال، ع1، س1، دار مثقفون بلا حدود، نيقوسيا، قبرص، 2007، ص: 46، 47.

العمران في المدن التي مروا بها، أما المقري فلم يعن بذلك، وتجاهل وصفها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه المظاهر، أضحت من الأمور المعروفة لدى الناس، فلا تصوير للمؤسسات السياسية أو الاقتصادية، ولا وصف للشوارع والساحات العامة[1] .

وقد أورد المقري في وصف الحرمين بعض الأبيات الشعرية المتغنية بمكة المكرمة، والمدينة المنورة وعرفات و المشعر الحرام ومنى، وغيرها من المواقع الشريفة[2].

ونقل الورثيلاني الكثير من النصوص المنتسبة للرحالة بن ناصر الدرعي، الذي أخذ بدوره الرحالة المغربي أبي سالم العياشي، وهي نقول تصف بدقة مدن وقرى، وآبار مياه شاهدها الرحالتان، لكنه لم يكتف بذلك، بل قدم لنا انطباعاته وملاحظاته الشخصية حول الحجاز، وكان تركيزه قويا على الملامح العامة للمكان، وتحديد خصائصه الجغرافية والاقتصادية والعمرانية، بأسلوب حافل بالشمول، والتصوير السريع للموصوفات .

ثم تلا ذلك عدة ترميمات وإصلاحات في عهد الدولة العثمانية، كان من أهمها بناء الكعبة المشرفة حينما تهدمت بسبب الأمطار، وكان ذلك في عهد السلطان مراد خان [3]ابن السلطان أحمد خان.. وفي سنة 966هـ/1558م، أرسل السلطان سليمان القانوني[4] منبرا جديدا هدية للمسجد

(1) عبد القادر شرشار، المرجع السابق, ص69-70.

(2)المقري؛ نفح الطيب، المصدر السابق، ج1،ص49-61.

(3)**السلطان مراد خان:** هو مراد بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم بن بايزيد بن محمد الفاتح. يُعدُّ من كبار سلاطين الدولة العثمانية، وقد نجح في إعادة النظام إلى الدولة، وأعاد الانضباط إلى الجيش، وأنعش خزانة الدولة، انظر: الأعلام (5/ 29).

(4) **السلطان سليمان القانوني**: أشهر السلاطين العثمانيين وخليفة المسلمين الثمانين، وثاني من حمل لقب "أمير المؤمنين" من آل عثمان. بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت، انظر: الأعلام (5/ 11)

ولا يمكن تعداد كل ما وصفه الرحالة في الحجاز، ورغم غلبة الجدب وقلة المياه فإنه يتمتع بمدن وقرى عامرة، وحيوية اجتماعية واقتصادية ، مليئة بالأسواق والمزارع وواحات النخيل، ومن هذه الأماكن: ينبع، بدر، رابغ، قديد، خليص، وادي فاطمة، مكة، المدينة المنورة[1]

وصف الورثيلاني قرية رابغ فقال:" قرية عظيمة كثيرة المزارع والمقاهي والنخيل والمياه، وسوقها عظيمة..غير أنها غالية الأثمان"[2]، وأما معطن وادي فاطمة ففيه:" مياه كثيرة، وعيون جارية وبساتين مشهورة، ومزارع قوية وفواكه مختلفة"[3] .

عرّف الرحالة الجزائريون بالأماكن والمواضع، التي كانت بارزة في خريطة العالم العربي في زمانهم، وزودونا بملاحظات هامة حولها ومنهم الورثيلاني الذي بين الفرق بين أراضي وجبال مصر، ومثيلتها في الحجاز، فقال:" إن لون جبال وأراضي مصر أقل سوادا منها في الحجاز"[4].

- **مكة المكرمة:**

انحصرت مدينة مكة المكرمة تاريخيا داخل وادي يحيط به سبعة جبال وقد انحصر النطاق العمراني للمدينة داخل ذلك الوادي، وقد اتصف النسيج العمراني بأنه نسيج متضام ذو طرقات متعرجة ومظللة، ومباني ذات ارتفاعات لا تتعدى الأربعة طوابق.

أ- المسجد الحرام: في عهد الخليفة العثماني السلطان سليم خان سنة 979هـ حصل في المسجد الحرام خلل وتصدع كبير، بحيث لا ينفع معه أي علاج، فأصدر السلطان أمره ببناء المسجد الحرام جميعه بغاية الإتقان والإحكام .

ولما فُرغ من بناء الجانبين الشرقي والشمالي توفي رحمه الله، وتولى ابنه السلطان مراد خان الخلافة فأصدر أمره بإكمال بناء المسجد الحرام، حتى أكمل بناؤه بناء كاملاً على الشكل القائم الآن، وذلك عام 984هـ .

(1) الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص374-378-380-400-511.

(2) 2 الورثيلاني؛ المصدر السابق، ص378-379.

(3) نفسه، ص347.

(4) نفسه، ص347.

وهومن المرمر الناصع البياض بدلا من منبره الخشبي السابق، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يستخدم المنبر الخشبي، وفي سنة 972هـ-1564م، أمر السلطان سليمان في فرش المطاف حيث سُدت البلاطات بالنورة الرصاص وتسمرت بمسامير.

ب- المساكن : تمثلت في بناء القصور والدور التي أنشأها الأمراء والأشراف والأثرياء،وقد أشاد المقري بقصر شريف مكة، وتركزت غالبية تلك القصور في وادي العقيق المشهور بوفرة مياهه وخصوبة أرضه، وارتبطت بتلك القصور ملاحق أخرى، كالدور، والآبار، والبرك، والسدود، والبساتين[1].

- **المدينة المنورة:**

تبدو المنطقة السكنية للمدينة في العصر العثماني، مندمجة وأقرب للاستدارة مستمرة على صورتها القديمة طوال العصور الوسطى حيث انكمشت إلى قرب حدودها القديمة قبل الهجرة في إطارها الطبوغرافي العام بين الوديان والحرات والجبيلات المتداخلة مع السكن، يحيطها السور الذي تتخلله البوابات و القلعة، وتنقسم من الداخل إلى أحواش ضمن حارات ضيقة وأزقة متعرجة تكون مسدودة أو مفتوحة، وقد وصفت في أوائل القرن الرابع عشر الهجري 1303هـ الموافق 1885م بأن المنازل كانت مصطفة حيث تؤلف إطاراً لوحدة سكنية مغلقة، لا تعلو عن طابقين، مستمدة مادة بنائها من التربة والصخور المحلية ومسقوفة من جذوع النخيل، يتوزع داخلها الأسواق، وكان هناك 11 سوقاً في المناخة، أكبرها وأوسعها سوق : الحبابة، والثمارة، والسمانة، والرواسة، الفلتية، الخضرية، والدلالين، والجزارة والعطارة والقماشة والخردية .

وقد عدد المصعبي مجموعة من المدن في طريق مكة والمدينة، كينبع، وبدر، بزوة، وربى، وقديد، وساوة، وعسفان، والتنعيم، ثم مكة المكرمة[2].

أ- المسجد النبوي: وصفه الرحالة الجزائريون ومن بينهم الورثيلاني، شكله العام مستطيل طوله من الشمال إلى الجنوب 116.25 متر، وعرضه من جهة القبلة (الجنوبية) 86.25 متر، ومن الجهة

(1) ابراهيم رفعت باشا؛ " مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية.."ج1، ط1، دار الكتب المصرية، مصر، 1925، ص11.
(2) المصعبي، المصدر السابق، ص77.

الشمالية (الشامية) 66 متراً . ويتكون المسجد من صحن أوسط غير مسقوف يسمونه الحصوة، والجهة الجنوبية منه اثنا عشر رواقاً، وبالجهة الغربية ثلاثة أروقة، وبالجهة الشرقية رواقان، وبالجهة الشمالية ثلاثة أروقة. وعدد أعمدة الحرم ثلاثمائة وثلاثة وعشرين عموداً. ويوجد بين كل عمودين ثلاثة مصابيح معلقة في عوارض بين الأعمدة بسلاسل فضية، وسقف الأروقة من القباب المقامة على عقود.

الأبواب: للمسجد خمسة أبواب، اثنان في الجهة الغربية، هما: باب السلام، وباب الرحمة.. واثنان في الجهة الشرقية، هما: باب النساء، وباب جبريل.. وباب واحد في جهة الشمال أنشأه السلطان عبد المجيد[1].

- المساجد التي تزار بالمدينة المنورة[2]:

- مسجد قباء: وهو المسجد الذي أسس على التقوى.

- مسجد الفتح: مرتفع على قطعة من جبل سلع، يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية.

- مسجد سلمان الفارسي: وفي قبلته مسجد علي بن أبي طالب.

- مسجد سقيا: وهو على يسار الذاهب للمدينة.

- مسجد الراية: وهو على جبل صغير من سلع من شرقيه، قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة.

ب – المساكن :كانت شوارع المدينة عريضة، نظيفة إلى حدٍّ ما، تنتهي عادةً بساحات واسعة تُشكِّل رئتي المدينة، وبيوتها متينة البنيان، وتتألَّف من عدة طوابق، وأبوابها على شَكْل أقواس، وهي مبنية من الحَجر، ولها مظهرٌ جميل، ولها نوافذ واسعة تطلُّ على الخارج، وهذا شيءٌ نادر في البلاد الإسلامية؛

(1) **السلطان عبد المجيد**: (1823 - 1861)، هو خليفة المسلمين الثالث بعد المئة وسلطان العثمانيين الحادي والثلاثين والثالث والعشرين من آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة. وهو ابن السلطان محمود الثاني، تولى السلطنة وله من العمر 16 عامًا وثلاثة أشهر؛ تمكنت الدولة في عهده من الانتصار في حرب القرم، واستعادة سوريا العثمانية من حكم محمد علي باشا، وأدخل إصلاحات عديدة في القوانين العثمانية، أنظر: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، ط1، بيروت، لبنان, 2006، ص40.

(2) الورثيلاني: المصدر السابق، ص 475-491.

لأنَّ الحياةَ المنزلية تتمُّ على الدوام داخلَ البيت، ولا تترك أيَّ شيء يمرُّ إلى الداخل، لا ضوء النهار، ولا الهواء، ولا الضوضاء، ولا الأنظار الفضولية، وليس لتلك النوافذ زُجاج، بل هي مُغطَّاة بسياج من الخَشَب المفرَّض بمهارة عجيبة؛ ليسمحَ بالرؤية من الداخل دون أن يتمكَّن مَن في الخارج رؤية مَن بالداخل... والنوافذ بارزة ومقوَّسة، وتجدر الإشارة الى أن ثمة أعداداً هائلة من النقوش التي تمثل مختلف العصور[1].

وقد كانت قبور الصحابة تمثل قيمة روحية وأخلاقية في المجتمع ذلك العصر، فهي تقصد لزيارتها أولا للترحم على أرواح أصحابها، والدعاء عندها تبركا بقدر أولئك المدفونين فيها، وكان الرحالة يقصدونها لكل تلك الأسباب.

يشير المجاجي[2] أنهم قصدوا مقبرة البقيع التي تحوي أضرحة عددا من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وعمه العباس، والحسن، وحمزة وعثمان وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، بقول:

– مسجد الضرار: وبه حديقة، فيها بئر أريس.

– مسجد الفضيخ: وهو مسجد صغير شرقي قباء، على شفير الوادي، مرضوم بحجارة سود.

– مسجد مشربة أم ابراهيم: فيه ولدت مارية ابراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم.

وثم خرجنا للبقيع وأهله وما فيه من زوجات خير البرية

وقبة عم الهاشمي محمـــد هو المسمى العباس في خير روضة

وثم الحسن مدفونا فيها إذ هما في مقام واحد بالسوية

وحمزة أيضا قد أتينا مقامه تبركنا به بكرة في صبيحة

وزرنا ابن عفان ومن ثم حوله من الصحابة التابعين الشهيرة[3]

(1) عماد عبد العزيز يوسف ,الحجاز في العهد العثماني,1876-1918, دار الفرات, بيروت , 2011 ,ص273.

(2) المجاجي؛ المصدر السابق، ص 141.

(3) المجاجي؛ المصدر السابق، ص 141.

نستنتج مما سبق ذكره في هذا الفصل أنّ الرحالة الجزائريين دونوا وسجلوا لنا من خلال رحلاتهم، ما شاهدوه وما عايشوه من أوضاع سياسية واقتصادية، وما رصدوه من أحوال اجتماعية، وثقافية ودينية، وما لاحظه بعضهم في الجانب العمراني، فقدموا لنا صورة حية، عن تاريخ الحرمين الشريفين في الفترة العثمانية.

فسياسيا كانت منطقة الحجاز تحت وصاية الدولة العثمانية، يحكمها الأشراف باسمها ونيابة عنها، حيث قاموا بتنظيم الحياة الاقتصادية التي كانت مزدهرة في مواسم الحج، فعجت الأسواق بالحجيج، وازدادت المبادلات التجارية، أما اجتماعيا فقد نقل لنا الرحالة الجزائريين عادات وتقاليد المنطقة، في الزواج والاحتفال.. وتركيبة مجتمع الحرمين المتكونين من أشراف وطبقة متوسطة وعبيد. وبسبب اجتماع العلماء والمحدثين والرحالة في مواسم الحج نشطت الحياة العلمية والثقافية، فأخذوا عن بعضهم البعض، وكثرت الإجازات العلمية، أما الجانب العمراني فهناك من الرحالة من آثر تجاهله وعدم الإشارة إليه، لعدم جدوى ذكره، وآخرون وصفوا المدن والمساجد والأسواق والشوارع ...

إنّ نصوص الرحلة الجزائرية مرآة عاكسة لأحوال الحرمين الشريفين (مكة والمدينة المنورة) في الفترة العثمانية.

- **استنتاجات عامة:**

- إن الرحلات الجزائرية سجلت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية لمكة والدينة المنورة، وعكست أحوال المجتمع الحجازي وعاداته.

- وصفت نصوص الرحلة الجزائرية الحجازية الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وصفا دقيقا، ونقلت مشاهدات أصحابها للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والمعرفية والثقافية والسياسية، السائدة في زمن الرحلة، ووصفت شعائر الحج، وأشواق الحجاج إلى الأماكن المقدسة، فالحج باعتباره ركن خامس للإسلام، له مكانة كبيرة عند المسلمين لما ورد في فضله من آيات وأحاديث نبوية.

تميزت الحياة السياسية للحرمين الشريفين زمن الرحلة، بتولي الأشراف دواليب الحكم باسم السلطان العثماني، وتحت رايته، وصورت لنا هذه الرحلات ما كان عليه هؤلاء الحكام- أمّا اقتصاديا فشكل موسم الحج فرصة لازدهار التجارة، والمبادلات التجارية بين مختلف الدول وتنوعت المنتوجات المعروضة في أسواق مكة والمدينة المنورة.

- لقد عكست نصوص الرحلة الجزائرية ملامح الحياة الاجتماعية السائدة في الحرمين الشريفين، من عادات وتقاليد، في كيفية عقد القران، ومراسيم الزواج ، وطريقة الاحتفال. .

- أمّا في الجانب الثقافي العلمي فقد اشتملت على مكاتبات ومراسلات واجازات بين الرحالة وعلماء الحجاز وقضاته وساسته وأدباءه.

الخاتـمة

تندرج هذه الدراسة ضمن فن الرحلات، التي تعني الانتقال في الزمان والمكان، والتي وصف فيها الرحالة العرب والم، ومنهم الجزائريين البلدان والسكان، فصوروا الوقائع والأحداث، التي شاهدوها، أو شاركوا فيها، وسجلوا ملاحظاتهم حولها.

لقد استقطب موقع الحرمين الشريفين ملايين البشر، الذين هوت أفئدتهم إلى مهبط الوحي و ومنطلق الرسالة المحمدية، وشاءت الإرادة الإلاهية أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة، منارتان تسطعان على الإنسانية جمعاء، يحج إليها كل مؤمن له طموح فكري، وتطلع روحي، وقد تجلت هذه النفحات في مئات الرحلات، التي ألفها المسلمون ومنها رحلات الجزائريين. لقد دوّن الورثيلاني، والمقري، والمجاجي، والمصعبي، تفاصيل مهمة عن رحلتهم الحجازية، للحرمين الشريفين، في الفترة العثمانية.

من خلال دراستي لهذا الموضوع، توصلت للعديد من النتائج، يمكنني إجمالها في النقاط التالية:

– كان فن الرحلة في بداياته عبارة عن وثيقة تاريخية وجغرافية، يهدف الرحالة من خلاله البحث عن معلومات جغرافية وتاريخية عن تلك البلاد التي يقصدونها، أي كان يطغى عليها الهدف العلمي، وابتداء من القرن 12م تحولت إلى وثيقة اجتماعية وثقافية، تنقل عادات وثقافات المجتمعات الأخرى.

– شهدت الجزائر في العهد العثماني حركة نشطة نسبيا في تدوين الرحلات، لكنها تبقى قليلة مقارنة بدول عربية أخرى كالمغرب، ورغم هذا فهي مصدر هام من مصادر تاريخ الجزائر، زودت الخزانة التراثية الجزائرية برصيد معرفي مكتوب.

– ظهر لنا من خلال هذه الدراسة، أن الرحلة الجزائرية بعد أن عادت إلى النشاط والرواج خلال

القرنين 16م و17م ضاع من مؤلفاتها الكثير واندثر، أما بقي مخطوطا ينتظر التحقيق ليخرج إلى الوجود.

– إن الرحلات الجزائرية سجلت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية لمكة والدينة المنورة، وعكست أحوال المجتمع الحجازي وعاداته.

– تنوعت الرحلات الجزائرية في شكل كتابتها بين النثر والشعر، حسب ميول كل رحالة، وقدرته على نظم الشعر، فالورثيلاني دوّن رحلته نثرا، والمجاجي والمصعبي نظماها شعرا فصيحا، أما المقري فمزج بين النثر والشعر، وكل هذه الرحلات لا تخلوا من الجانب الجمالي الإبداعي.

– وصفت نصوص الرحلة الجزائرية الحجازية الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وصفا دقيقا، ونقلت مشاهدات أصحابها للظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والمعرفية والثقافية والسياسية، السائدة في زمن الرحلة، ووصفت شعائر الحج، وأشواق الحجاج إلى الأماكن المقدسة، فالحج باعتباره ركن خامس للإسلام، له مكانة كبيرة عند المسلمين لما ورد في فضله من آيات وأحاديث نبوية.

– إنّ الجزائريين كبقية المسلمين في أصقاع الأرض، تنبض قلوبهم بحبّ البقاع المقدسة، وتهفو نفوسهم إلى زيارتها لأداء فريضة الحج أو العمرة، و يعتصرهم الأمل والتمني، ويتأجج في صدورهم الحنين والشوق لمجاورة سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم).

– تميزت الحياة السياسية للحرمين الشريفين زمن الرحلة، بتولي الأشراف دواليب الحكم باسم السلطان العثماني، وتحت رايته، وصورت لنا هذه الرحلات ما كان عليه هؤلاء الحكام، فالبعض كان عادلا، ورعا تقيا، شجاعا شهما، مضيافا للحجيج، والبعض الآخر تميز حكمهم بالظلم والبطش واكتناز الأموال، وإهمال حال الرعية، مما أدى عدم الاستقرار ,وتفشي اللصوصية وقطاع الطرق، فيما عمّ الاضطراب السياسي الحجاز داخليا، بسبب تصارع أمراء الأشراف فيما بينهم على الإمارة حسب ما جاء في رحلة الورثيلاني والمقري.

– أمّا اقتصاديا فشكل موسم الحج فرصة لازدهار التجارة، والمبادلات التجارية بين مختلف الدول وتنوعت المنتوجات المعروضة في أسواق مكة والمدينة المنورة، وتسابق الحجاج في اقتناء الهدايا والسلع، للعودة بها للديار، وتوزيعها على الأهل والمقربين وقد أشارت الرحلة الورثيلانية إلى هذا الجانب في مواضع مختلفة..

– لقد عكست نصوص الرحلة الجزائرية ملامح الحياة الاجتماعية السائدة في الحرمين الشريفين، من عادات وتقاليد، في كيفية عقد القران، ومراسيم الزواج ، وطريقة الاحتفال، كما نقل المصعبي في رحلته بعض المشاهد غير المشرفة من انتشار الأوساخ والأنجاس داخل الحرم المكي .

–أشارت إلى تعدد الطبقات في المجتمع الحجازي، واختلاف تركيبته السكانية من أشراف وعبيد، واختلاف الأجناس فيه.

– أمّا في الجانب الثقافي العلمي فقد اشتملت على مكاتبات ومراسلات واجازات بين الرحالة وعلماء الحجاز وقضاته وساسته وأدباءه، ورحلة المقري تميزت بطابعها العلمي، سجلت ما كان يتم في حلقات الدروس من احتكاك ثقافي علمي بين ثقافات مختلفة، ونقاشات ثرية مثمرة، وتبادل لمؤلفات ، كما حظيت المسائل الفقهية في الجانب الديني باهتمام بعض الرحالة، وتحدثوا عن قضايا دينية مختلفة، تتعلق أغلبها بالحج.

– إنّ الإسلام دين علم ومعرفة، والرحلة وسيلة للعلم والإعلام، تعددت أغراضها وغاياتها، وحث القرآن والسنة النبوية على وجوب السعي فيها، تحقيقا للمقاصد.

– أظهرت مكانة مكة المكرمة والمدينة المنورة العلمية، التي وصل إشعاعها لكافة الأقطار الإسلامية، فهما حلقة وصل بين الشرق والغرب.

– لعب العلماء المجاورون لمكة والمدينة دورا بارزا في الترويج للحركة العلمية، كما ذاع صيت الرحالة الجزائريين، بما نالوه من علم، إضافة إلى كتاباتهم التي تعكس نظرتهم للأمور، وحكمهم على الأحداث.

– لقد أدى ضعف الحالة الدينية في الحجاز إلى أن أصبحت مرتعا خصبا لظهور البدع، والتشيع والخرافات، كما تفشت عادة التبرك بالأولياء والصالحين.

– اهتم بعض الرحالة بالجانب العمراني لمكة والمدينة المنورة، رغم أن هناك منهم من آثر عدم الحديث عنه كما فعل المقري لعدم جدوى ذلك، فالعمران الحجازي لا يختلف كثيرا حسبه عما هو عليه في الجزائر، وليس ملفتا للانتباه، أما بقية الرحلات فقد تحدثت عن المدن والمساجد والأسواق والآبار، المحيطة والمتواجدة بالحرمين الشريفين.

في الحقيقة أن موضوع الدراسة واسع متشعب، يحتاج لمزيد من الجهد والوقت للبحث في مختلف جوانبه، ندعو الطلبة والبحاثين للغوص فيه، وإثرائه والتنقيب عن خباياه.

وختاما أسأل الله تعالى أن يكون قد حالفني التوفيق في إبراز أهم النتائج، التي توصل إليها البحث، وأنّي قد حققت الهدف منه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الملاحق

الملحق رقم: 1 (صورة الحرم النبوي في العهد العثماني 1326هـ)[1]

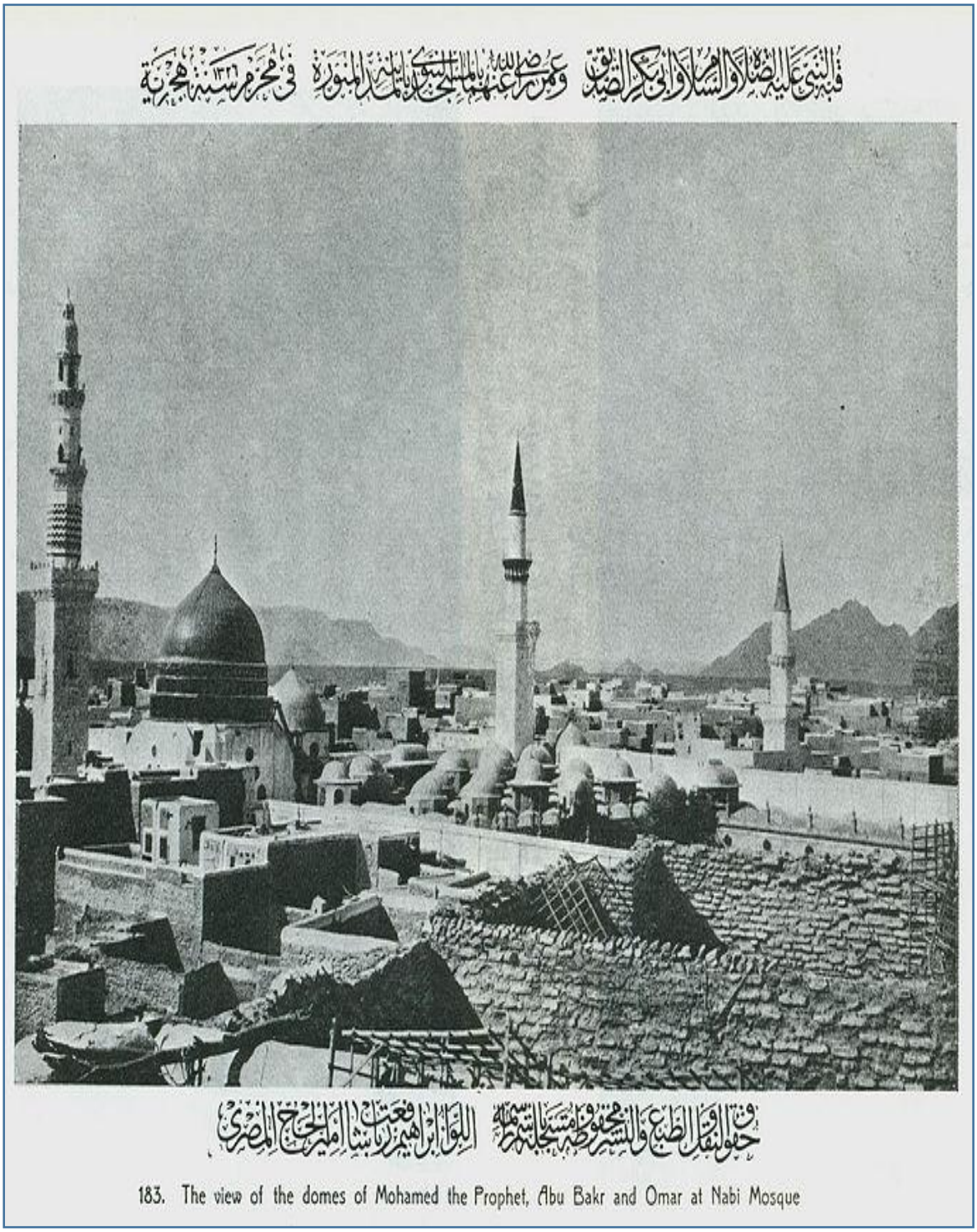

183. The view of the domes of Mohamed the Prophet, Abu Bakr and Omar at Nabi Mosque

1 إبراهيم رفعت باشا، المرجع السابق، ص 81

الملحق رقم 2 (خريطة مكة في العهد العثماني عام 1197هـ)[1]

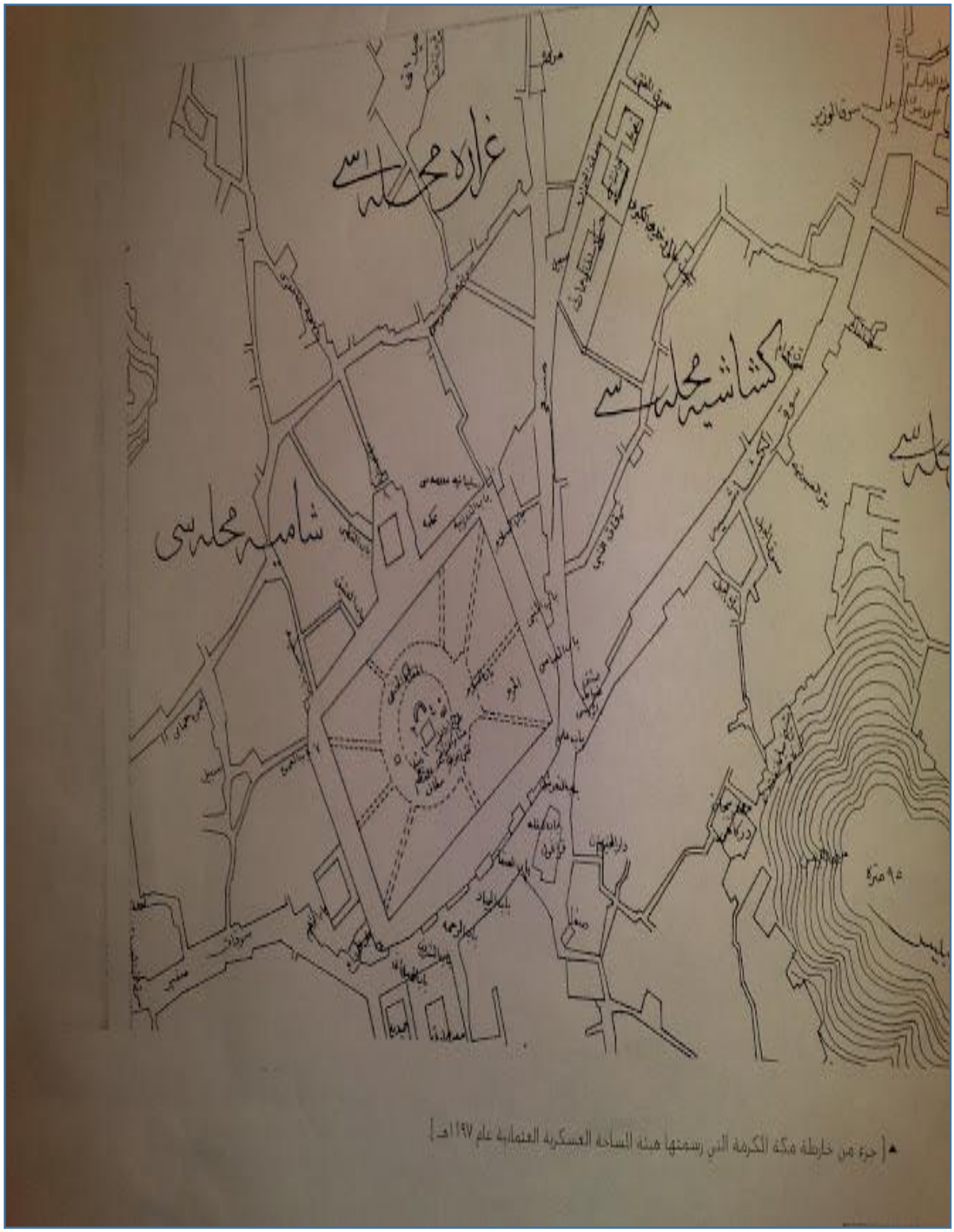

[1] المصغبي، المصدر السابق، ص106

ملحق رقم: 3 صورة من النسخة المخطوطة لرحلة الورتلاني بالمكتبة الوطنية.

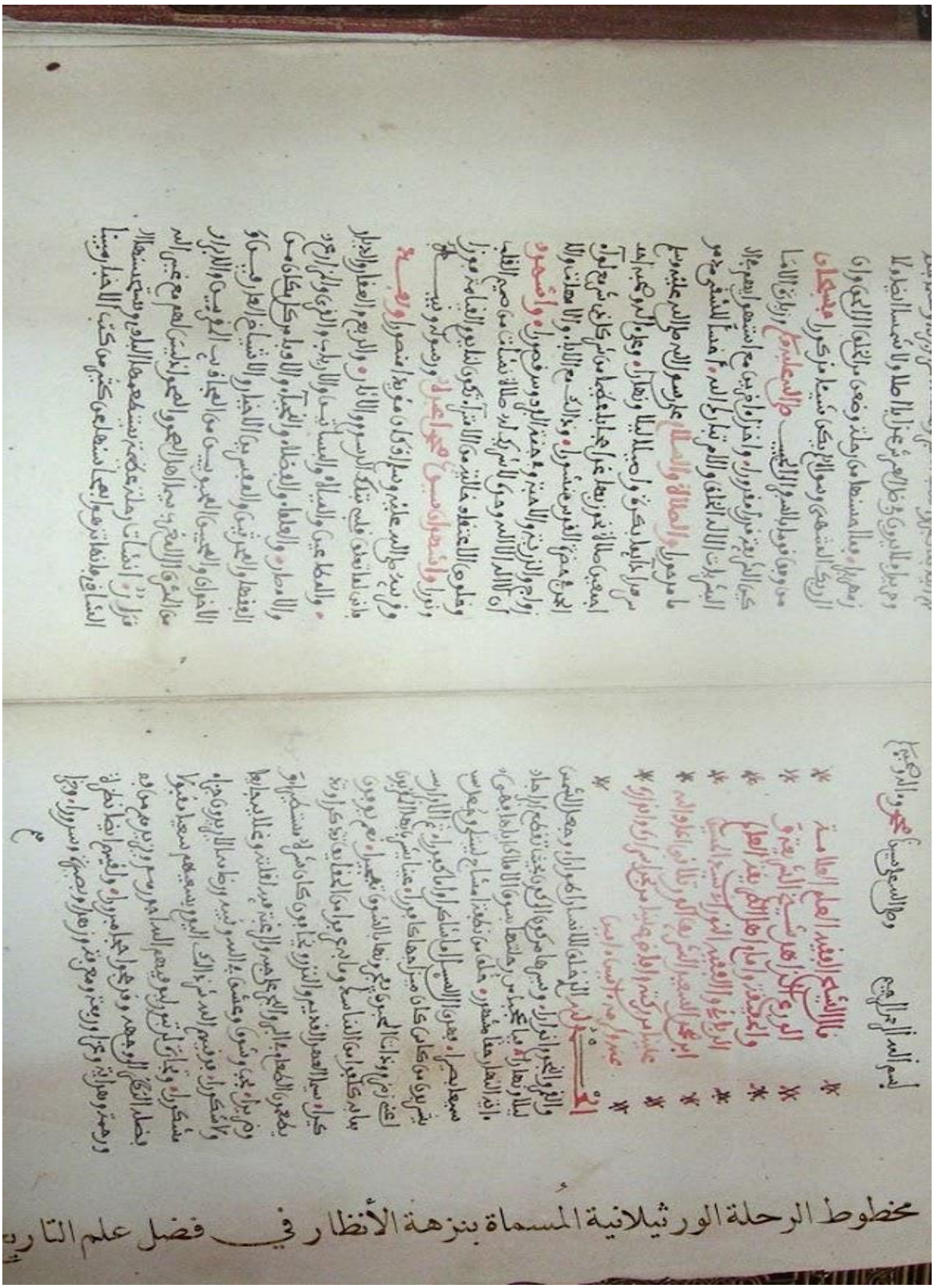

الملحق رقم: 4 صورة للحرم المكي خلال العهد العثماني[1]

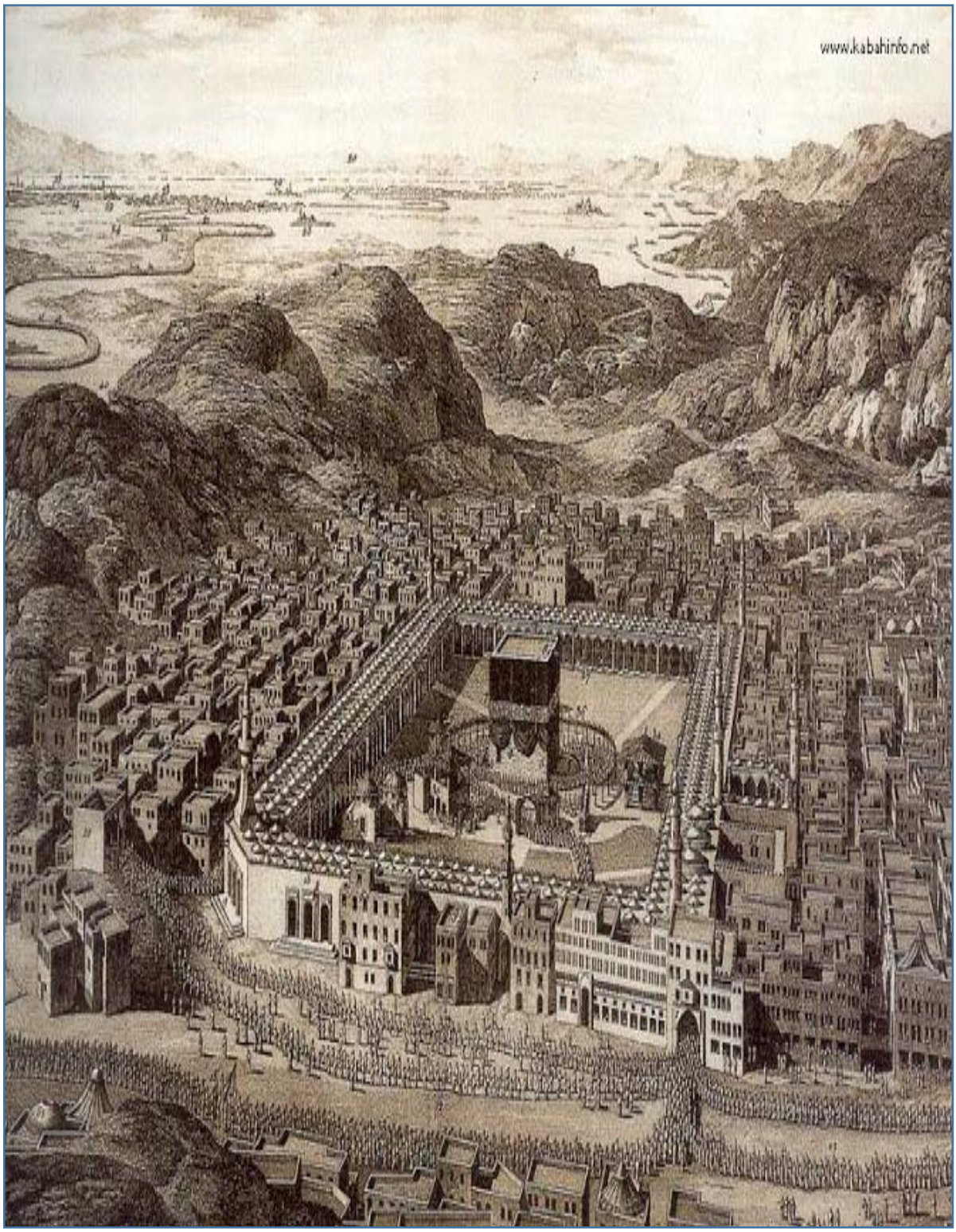

[1] http://www.generalcomtech.com/kabah/

صورة لتخطيط الطريق بين مكة والمدينة خلال العهد العثماني[1]

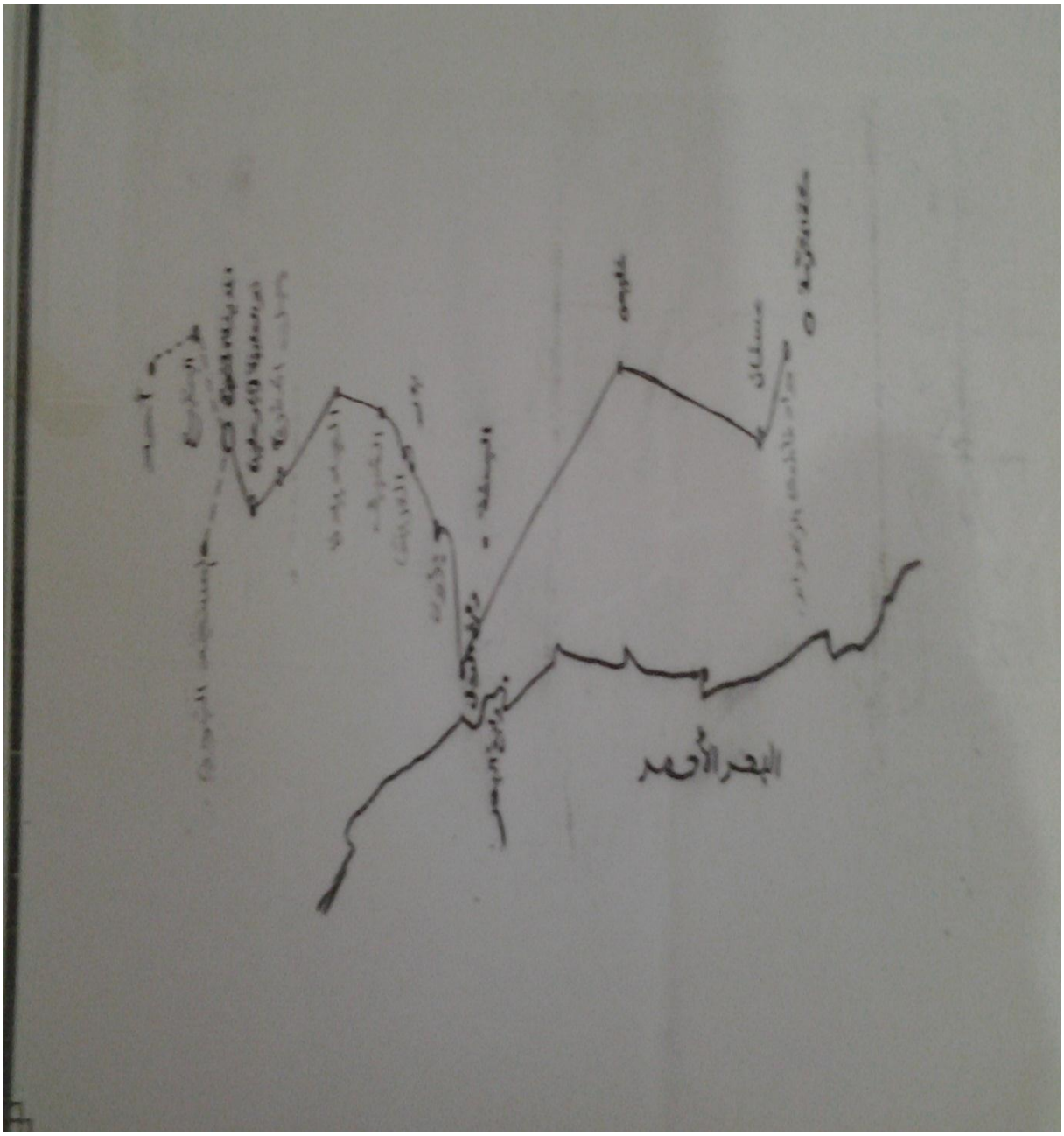

[1] آل سيد الشيح، لمرجع السابق، ص198

قائمة المصادر

والمراجع

المصادر:

- ابن بطوطة محمد بن عبد الله؛ " غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" تح: محمد بن عبد الرحيم، دار الفكر للطبع،ط1،بيروت، لبنان،2009
- الحموي ياقوت بن عبد الله (ت626خ/1228م)، معجم البلدان، بيروت، دار الصادر، ط1، 1995م ،ج5.
- ابن خلدون عبد الرحمان، مقدمة ابن خلدون، دار الهدى، أحمد الزعبي، الجزائر، 2009.
- ريس بيري؛ كتاب البحرية، تر : محمد حرب، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1 دبي، الإمارات العربية المتحدة، 2012.
- بن عمار أحمد أبو العباس، نحلة اللّبيب بأخبار الرّحلة إلى الحبيب ، مطبعة فونتانة، الجزائر، 1902م.
- العياشي أبي سالم عبد الله بن محمد ؛ الرحلة العياشية (1661-1663)، ج1، ج2، تح: سعد الفاضلي، سليمان القرشي، ج1، ط1،، دار السويدي للنشر، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006.
- العياشي ابي سالم، إتحاف الأخلاء بإجازات المشايخ الأجلاء، تح؛ محمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، ط1ن بيروت، لبنان، 1999
- الفكون عبد الكريم ، منشور الهداية في كشف من ادَّعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق، الدكتور أبو القاسم سعد الله، بيروت، دار الغرب الإسلامي،1987م.
- المقري أحمد ، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تح: محمد بن معمر، جامعة وهران، دار الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1425هـ/2004م
- المقري احمد، نفح الطيب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، ج1، دار صادر، الجزائر، 1968

- المقري أحمد ؛ روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضريتين مراكش وفاس،ط2 ،المطبعة الملكية ، الرباط ،1983
- المصعبي ابراهيم بن بحمان؛ رحلة المصعبي، تحقيق وتعليق يحي بن بهون حاج امحمد، قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2007.
- المنداسي بن عبد الله التلمساني ديوان سعيد المنداسي تحقيق وتقديم رابح بونار، ش و ن ت، الجزائر، د ط.
- ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء بتلمسان مراجعة: الشيخ محمد بن أبي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ماي 1986.
- الناصري أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، د.س.،
- النووي محي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، تح : محمد سيد عبد رب الرسول، ج18 -17، مكتبة أبو بكر الصديق للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2006.
- الورثيلاني الحسين بن محمد، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" الرحلة الورثيلانية" ، تصحيح: محمد بن أبي شنب ، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1908م.

المراجع:

- انساعد سميرة ، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطور والبنية، دار الهدى للنشر، د ط، الجزائر، 2009.
- باشا ابراهيم رفعت؛ مرآة الحرمين في الرحلات الحجازية. ج1، ط1، دار الكتب المصرية ، مصر ، 1925

- بوعزيز يحي ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، ج2، ط1 دار الغرب الاسلامي ،1995.
- بوعزيز يحي ، الموجز في تاريخ الجزائر، د ريحانة للنشر، الجزائر، 2002.
- البلوي خالد بن عيسى ؛ تاج المفرق في تحلية علماء المشرق،، تحقيق حسن السائح، بدون تاريخ ج1.
- البدرشيني أحمد هاشم؛ مكة والمدينة في القرنين 7هو8هـ في كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين، ط1، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، السعودية، 2008.
- ابن الخطيب لسان الدين، الأحاطة في أخبار غرناطة ، تح:بوزياني الدراجي، ج2، دار الأمل للدراسات ، الجزائر، 2009
- جارشلي اسماعيل حقي ، أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني، تح خليل علي مراد الدار العربية للموسوعات ،ط1، 2003
- الحفناوي أبي القاسم؛ تعريف الخلف برجال السلف، ج2، د.بيير فونتانة ، الجزائر، 1906
- حسن زكي محمد ؛ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، كلمات للترجمة والنشر، القاهرة، 2013.
- الخطيب محمد عجاج ، أصول الحديث وعلومه ومصطلحه، يدون تاريخ، دار الفكر ط2 :1971م.
- عبد العزيز عماد؛ الحجاز في العهد العثماني، دار الساقي للطباعة والنشر، الرياض ، السعودية ، 2008

- عبد الكريم أحمد عزت ، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا، دار المعارف ، ط1، بيروت، لبنان, 2006.
- الغزالي أبو حامد محمد بن محمد ، إحياء علوم الدين، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ج2، ج6
- فهيم حسين محمد، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة، العدد 138، الكويت، 1989.
- القدوري عبد المجيد ؛ " ابن أبي المحلى الفقيه الثائر ورحلته الاصليت الخريت، د ط، منشورات، عكاظ، الرباط ، المغرب، د س،ص93.
- السعدون، خالد، مختصر التاريخ السياسي للخليج العربي منذ أقدم حضاراته حتى عام 1971، جداول للنشر والتوزيع، بيروت.
- سعد الله أبو القاسم ؛ أبحاث و أراء في تاريخ الجزائر، ج2، ش و ن ت، الجزائر 1981.
- أبو القاسم سعد الله؛ تجارب في الأدب والرحلة، د.ط: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر العاصمة، الجزائر، 1983،
- سعد الله أبو القاسم ؛ تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م،
- سعيدوني، ناصر الدين: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ، ج1 ، الجزائر 1988 م
- شارف رقية؛ الكتابات التاريخية الجزائرية الحديثة خلال القرن 18م، دار المالكية، ط1، الجزائر،2007.
- الصياد محمد محمود؛ المقالح عبد العزيز؛ مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب، رؤية يمنية في أدب الرحلات، دار الخليج، اليمن، ط1، 2012.

- كلوزييه رينيه، تطور الفكر الجغرافي، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر للطبع، د ط دمشق، سوريا، 1985
- لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، 2009.
- مؤنس حسين ؛ ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.
- الموافي ناصر عبد الرازق، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، مطابع الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى 1415هـ - 1995م.
- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة، ش و ن ت، الجزائر
- يوسف عماد عبد العزيز ، الحجاز في العهد العثماني,1876-1918, دار الفرات, بيروت , 2011
- يوسف بن بكير الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، ط1 :1991.
- تاريخ هيرودوت، تر: عبد الاله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي،2001.
- مدخل للجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان،1972.
- ظريف أحمد ,قراءة في رحلة الورتلاني، دس، دط،
- النيسابوري مسلم بن الحجاج القشيري ، صحيح مسلم، ط1، ج2، 2006م.

المعاجم

- ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم"، تحقيق عبدالله الكبير وآخرين، لسان العرب، ج3، دار المعارف، مصر، 1979م.

- الزركلي، خير الدين , الأعلام – ج6 ,دار العلم للملايين, 2002
- بطرس البستاني؛ دائرة المعارف الإسلامية، 264/10.

المقالات:

- المسعودي حمادي ؛ الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، مجلة أطروحات، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، فيفري2001 القيروان، تونس، ص30-31.
- الدويهي جبور، الرحلة وكتب الرحلات الأوربية إلى المشرق حتى نهاية القرن الثامن عشر، مجلة الفكر العربي، ع2 والثلاثون، جويلية 1983م
- سليمان القرشي، دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، مجلة رحال، ع1، س1، دار مثقفون بلا حدود، نيقوسيا، قبرص.

الرسائل الجامعية:

- آل سيد الشيخ سعاد، رحلة المجاجي – دراسة وتحقيق، مذكرة ماجستير غير مطبوعة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، تاريخ المناقشة2008/2007،
- بوشارب سلوى؛ مكة وعلاقاتها بالحواضر الحجازية والدول المجاورة, مذكرة ماجستير, جامعة منتوري قسنطينة, 2008/2007.

الفهرس

فهرس الموضوعات

إهـــــــداء
شـكر وتقديـر
مقدمـــــــة ..... 1.

الفصل الأول: الرحـلة من خلال الكتابات التـاريخية الجـزائرية

المبحث الأول: تعريف الرحلة وتطـورها.....10
المبحث الثاني : أنواع الرحلات عند المسلمين و أهدافها. 16
المبحث الثالث: **أهمية الرحلة والحاجة إلى دراستها**..... 22
المبحث الرابع : رحلات الجزائريين إلى الحجاز :دوافعها وعواملها 23

الفصل الثاني : نمـاذج من الرحـلات الجـزائرية إلى الحـرمين الشـريفين فـي الفتـــرة العثمـــانيـة

المبحث الأول: رحـــلة الـــورثيلاني

1-1- التعريف بصاحب الرّحلة 35
1-2- القيمـــة العلمية للرّحـــلة 37

المبحث الثاني: رحـــلة أحـمد المقري

2-1- التعريف بصاحب الرّحلة 40
2-2- القيمـــة العلمية للرّحـــلة 44

المبحث الثالث: رحـــلة المـــجـــاجي

1-1- التعريف بصاحب الرّحلة 46
1-2- القيمـــة العلمية للرّحـــلة 46

المبحث الرابع: رحـــلة المـــصعبي

2-1-التعريف بصاحب الرّحلة 47
2-2- القيمـــة العلمية للرّحـــلة 49

الفصل الثالث: صورة مكة و المدينة من خلال نصوص رحلات الجزائريين في الفترة العثمانية

المبحث الأول :الحياة السيـــاسية.....53
المبحث الثاني : الحياة الاقتصـادية 60
المبحث الثالث: الحياة الاجتمـاعية 65
المبحث الرابع: الحياة الثقافية والدينية.....69
المبحث الخامس: الحياة العمـــرانية 76
الخاتمة 84
الملاحق 89
قائمة المصادر والمراجع 95
فهرس الموضوعات 102